حكم اقامة القبور فى المساجد

وبناء المساجد على القبور

فتوى من حضرة صاحب الفضيلة مفتى الديار المصرية

أصدرت دار الافتاء فى الديار المصرية الفتوى الآتية فى شهر جمادى الآخرة الماضى :

كتبت وزارة الأوقاف ما يأتى : « يوجد بوسط مسجد عز الدين ايبك قبران ورد ذكرهما فى الخطط التوفيقية ، وتقام الشعائر أمامهما وخلفهما ، وقد طلب رئيس خدم هـذا المسجد الى محافظة مصر دفنه فى أحد هذين القبرين ، لأن جده الذى جدد بناء المسجد مدفون بأحدهما . فنرجو التفضل ببيان الحكم الشرعى فى ذلك » .

الجواب :

إنه قـد أفتى شيخ الاسلام ابن تيمية بأنه لا يجوز أن يدفن فى المسجد ميت لا صغير ولا كبير ولا جليل ولا غيره ، فإن المساجد لا يجوز تشبيهها بالمقابر .

وقال فى فتوى أخرى : إنه لا يجوز دفن ميت فى مسجد ، فإن كان المسجد قبل الدفن غير ، إما بتسوية القبر ، وإما بنبشه إن كان جديدا الخ اهـ

وذلك لأن الدفن فى المسجد إخراج لجزء من المسجد عما جعل له من صلاة المكتوبات وتوابعها من النفل والذكر وتدريس العلم ، وذلك غير جائز شرعا ؛ ولأن اتخاذ قبر فى المسجد على الوجه الوارد فى السؤال يؤدى الى الصلاة الى هـذا القبر أو عنده ؛ وقد وردت أحاديث كثيرة دالة على حظر ذلك .

قال شيخ الاسـلام ابن تيمة فى كتاب اقتضاء الصراط المستقيم « ص ١٥٨ » ما نصه : إن النصوص عن النبى صلى الله عليه وسلم تواترت بالنهى عن الصلاة عند القبور مطلقا ، وعن اتخاذها مساجد أو بناء المساجد عليها . اهـ

ومن الأحاديث ما رواه مسلم عن أبى مرثد الغنوى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » .

وقال ابن القيم رحمه الله فى زاد المعاد : نص الامام أحمد وغـيره على أنه إذا دفن الميت فى المسجد نبش . وقال ابن القيم أيضا : لا يجتمع فى دين الاسلام قبر ومسجد ، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه ، وكان الحكم للسابق .

وقال الامام النووى فى شرح المهذب ج ٥ ص ٣١٦ ما نصه :

اتفقت نصوص الشافعى والأصحاب على كراهة بناء مسجد على القبر ، سواء كان الميت مشهورا بالصلاح أو غيره ، لعموم الأحاديث . قال الشافعى والأصحاب : وتكره الصلاة الى القبور سواء كان الميت صالحا أو غيره .

قال الحافظ أبو موسى : قال الامام الزعفرانى رحمه الله : ولا يصلى الى قبر ولا عنده تبركا به ولا إعظاما له ، للأحاديث . ا ﻫ

وقد نص الحنفية على كراهة صلاة الجنازة فى المسجد لقوله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على جنازة فى المسجد فلا أجر له » .

وعلل صاحب الهداية هذه الكراهة بعلتين : إحداهما أن المسجد بنى لأداء المكتوبات ، يعنى وتوابعها من النوافل والذكر وتدريس العلم . وإذا كانت صلاة الجنازة فى المسجد مكروهة للعلة المذكورة كراهة تحريم — كما هو إحدى الروايتين ، وهى التى اختارها العلامة قاسم وغيره — كان الدفن فى المسجد أولى بالحظر ، لأن الدفن فى المسجد فيه إخراج الجزء المدفون فيه عما جعل له المسجد من صلاة المكتوبات وتوابعها . وهذا مما لا شك فى عدم جوازه شرعا . والله أعلم .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباقيات الصالحات

فى مدينة المنصورة حى آهل بالسكان والطلبة يطلق عليه « حوض البستان » لا يوجد فيه مسجد تقام فيه الشعائر الدينية .

وقد لاحظ جماعة من فضلاء المنصورة هذا النقص ، فانتدبوا لإكماله ، وألفوا جمعية لهذا الغرض برياسة الأستاذ على محمود شرف أسموها « جمعية تشييد مسجد حوض البستان وملحقته الصحية » وجعلت فى تصميم المشروع ملحقة صحية هى : حمام ومغسل ، ترفيها للطبقات الفقيرة .

وقد أهابت الجمعية بسراة المنصورة فلبوا نداءها وتبرعوا بالأرض وبالمال ومواد البناء . ولكن إتمام المشروع لا يزال فى حاجة الى مال ، ولذلك فهم يهيبون بطلاب الباقيات الصالحات أن ينفحوا الجمعية بشىء مما تسمح به نفوسهم الخيرة ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

تاريخ علم التفسير

ونماذج من تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم

أثبتنا فى المقال السابق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر القرآن الكريم ، ولكنه ليس تفسيراً بالمعنى المعروف عند المتأخرين ، أى الذى يكون مرجعه قواعد اللغة والبلاغة وغيرها ، بل هو بيان لمراد الله سبحانه وتعالى من حيث التشريع وتقديم الأحكام ، وبيان ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومنطوقه ومفهومه ، وحلاله وحرامه ، وبيان ما فيه من أخلاق سامية ، ونظم اجتماعية عالية ؛ ومرجعه صلى الله عليه وسلم فى ذلك كله الوحى ؛ فلذلك قال بعض الأصوليين فى مباحث الاجتهاد : إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ليس له أن يجتهد فى الأحكام ، لأن غاية الاجتهاد ظن الحكم ، أى استفادة الحكم من الدليل على سبيل الظن ، والرسول صلى الله عليه وسلم يمكنه معرفة الحكم عن طريق العلم واليقين بالوحى . وخالفه بعضهم ، بل الجمهور على أن له أن يجتهد ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى » .

ولهم فى هذا الموضوع جدل وحجاج وأدلة واستدلالات ليست موضوعنا ، بل الذى أردنا أن نقرره هو أن تفسير النبى صلى الله عليه وسلم ليس تفسيرا بالمعنى الذى نعهده من كتب المفسرين ، فلا إعراب ولا استئناف بيانى ونحوى ، ولا نكات بلاغية ، ولا ما شابه ذلك مما سنعرض له عند تفسير الطبقات ، وإنما هو بيان للأحكام والتحذير من مخالفتها ، وشرح لمكارم الأخلاق والترغيب فيها ، وبيان ما فى القصص من جلال وروعة وعبرة لأولى الأبصار .

نماذج من تفسيره صلى الله عليه وسلم :

١ — عن الأشعث بن قيس رضى الله عنه قال : « كانت لى بئر فى أرض ابن عم لى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم بينتك أو يمينه ، فقلت : إذاً يحلف يا رسول الله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين صَبْرٍ ليقتطع بها مال امرئ مسلم وهو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان » فأنزل الله تصديق ذلك : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة » الى آخر الآية » .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرون بهذه الآية الكريمة من تصدى ليمين ، فيعود عنه مخافة الله تعالى . فمن ذلك ما وقع لامرأتين كانتا تخرزان فى بيت فخرجت إحداهما فادعت على الأخرى شيئا ، فرفع أمرهما الى ابن عباس ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو يعطى الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم ، ذكروها بالله واقرءوا عليها « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم » الآية ، فذكروها فاعترفت .

٢ — عن عائشة رضى الله عنها قالت : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله - الى قوله أولو الألباب » قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى اللهُ فاحذروهم » .

٣ — قول الله تعالى : « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » : روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها . ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم « وإنى أعيذها » الآية .

٤ — قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » : روى أنس بن مالك قال : « كان أبو طلحة أكثر أنصارىّ بالمدينة نخلا ، وكان أحب أمواله إليه (بيرحا) ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت هذه الآية : « لن تنالوا البر » قام أبو طلحة فقال : يارسول الله إن الله يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإن أحب أموالى الىّ بيرحا ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بخ ! ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعتُ ما قلتَ ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين . قال أبو طلحة : أفعلُ يا رسول الله ؛ فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وفى بنى عمه » .

٥ — قول الله تعالى : « ولَتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » : روى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال : حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سلولَ ، (وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى) ، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين ، والمشركين عبدة الأوثان ، واليهود ، والمسلمين ، وفى المجلس عبد الله بن رواحة . فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة خمّر عبد الله بن أبى وجهه بردائه ثم قال : لا تغبّروا علينا ! فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، ثم وقف فنزل فدعاهم الى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبى ابن سلول : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا ، فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع الى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ! فقال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشَنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ؛ واستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم

يخفضهم حتى سكنوا . ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد ابن عبادة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حُبَاب ؟ يريد عبد الله ابن أبي ، قال كذا وكذا ، فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله اعف عنه واصفح عنه ، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نَزّل عليك ، وقد اصطلح أهل هذه البَحْرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله ، شرق بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، ويصبرون على الأذى . فذلك قول الله تعالى : « ولتسمعن » الآية » .

٦ — قول الله تعالى : « وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » : روى الامام البخارى بسنده عن ابن شهاب قال : « أخبرنى عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قوله تعالى « وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى » فقالت : هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله « ويستفتونك فى النساء » . قالت عائشة : وقول الله تعالى فى آية أخرى : « وترغبون أن تنكحوهن » رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال ، قالت : فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى ماله وجماله فى يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال » .

٧ — قول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » : روى البخارى بسنده عن عروة قال : « خاصم الزبير رجلا من الأنصار فى شريج من الحَرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اسق يا زبير ثم أرسل الماء الى جارك ، فقال الأنصارى يا رسول الله آن كان ابن عمتك ! فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجَدْر ، ثم أرسل الماء الى جارك ؛ واستوعى النبي صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصارى ، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة . قال الزبير : فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت فى ذلك » .

هذه نماذج من تفسير القرآن فى عصر النبي صلى الله عليه وسلم . وسنواصل كتابة هذه النماذج ، ثم نعلق عليها ونقارن بينها وبين تفسير الطبقات . والله الموفق ؟

محمد حسين

رجاء فى دولة رئيس الوزراء

من فضيلة شيخ علماء الاسكندرية

تشرف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون شيخ علماء الاسكندرية ، بمقابلة حضرة صاحب الدولة حسن صبرى باشا رئيس مجلس الوزراء ، فكاشف دولته بما يرجوه الناس على عهده من العناية بالأعراض والآداب العامة ، فوجد أن هذا الإصلاح من أوليات مقاصده ، فشكر لدولته هذه العناية ، ورفع الى دولته الكتاب التالى :

« نصيحتنا لدولة الوزير الأكبر ، أن يرقب الله فى كل ما يعمل ، وأن يسترشد فيه بذوى الضمائر والذمم ، وأن يؤثر مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وأن يرقب الحوادث عن كثب فى حذر ويقظة ، فانها تمر كالبرق لا تملى ولا تمهل ، وأن يمثل لنفسه دائما شهداء التاريخ الذين جادوا بالنفائس والأعلاق فى سبيل الذياد عن كرامة البلاد ، وحقوق الوطن .

« ثم الدين والأخلاق يادولة الوزير المصلح ، فإنه لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بالاعتصام بالدين ، والحفاظ على تقاليده وشمائره ، ولا يفسد أمرها إلا بالتفريط فى دينها ، والتورط فى أخلاقها ، وعكوفها على لذاتها وشهواتها ، خصوصا فى الظروف التى تتجه فيها القلوب ، وتنصرف فيها الى الله سبحانه وتعالى ؛ وأمتنا — أعاذها الله من سخطه ونقمته ! وهى ما هى من الجوع والقحط ، والهلع والكرب ، ومصيرها المعلق بخيط الهباء — لاهية عن دينها ، منحلة فى أخلاقها ؛ فانظر — يارعاك الله — الى الملاهى والمسارح والمقاصف ، وأندية القمار ، وحانات الخمور ، وبيوت الفساد والشرور ، تجدها مكتظة عامرة ، ذاخرة بالشباب الضائع ، بالعشى والإبكار .

« ولقد نعلم يادولة الوزير أنك نشأت فى الصلاح والتقوى ، وأنه ليعز عليك أن ترى أمتك على هذا المثال فى وقت ترى فيه الأمم الأخرى قضت على كثير من الشرور والآثام ؛ وكلمة حازمة منك يادولة الوزير بصفتك حاكما عسكريا ، تنقذ البلاد والعباد من هذه البوائق المهلكة للأنفس والأموال والشرف ، حتى يتأذن الله بانفراج هذه الجائحة العاتية . إن يكن ذلك صلح حال هذه الأمة ، وحسن مصيرها ، وإلا يكن — لا قدر الله — كنا من الهلاك الآثمين .

فإما الى صداحة تطرب الورى وإما الى نواحة فى المآتم

« وفقك الله ، وأمتمك بالحسنى ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح ، ملك مصر المعظم ، فاروق الأول ، نصره الله وأعزه ، وأيد ملكه » .

محمود أبو العيون
شيخ علماء الاسكندرية

من آداب الشريعة وأخلاقها

ما من ظاهرة من ظاهرات هـذا المجتمع تشع عليه نورا وبهجة ، وتملأ مناحيه خيرا وبركة ، إلا كان لها مرد من الشريعة ، ومصدر من الدين .

ولقد عنيت الشريعة فيما عنيت بتطهير المجتمع من أرجاسه ، فأقامت حدوداً للفضائل إذا عولجت بالاخلاص فى العمل أثمرت ثمرتها المرجوة لها .

فبينما تحظر على الناس ريع التدابر والتقاطع والتناحر ، وتجنبهم مزالق المحظورات الخلقية ، إذا بهـا تدعو الى حماية الفرد والجماعة والأمة من غوائل الانقسام ، وتدعو الى الاتحاد والتعاضد . فهى تدعو الى البر بالأبوين ، وبر الأبناء ، وصلة الرحم ، وبر الأتباع ، ورحمة اليتيم والأرملة ، وتدعو الى رعاية حقوق الجار ، وحقوق المسلم على المسلم .

فيروى الشيخان فى صحيحهما عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » . ويروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رجـلا قال يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم أدناك فأدناك »

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : « قبّـل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التيمى جالسا ، فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : من لا يرحم لايرحم » . رواه البخارى وأبو داود والترمذى . ويروى البخارى فى صحيحه عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأخذنى فيقعدنى على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول : اللهم ارحمهما فانى أرحمهما » . وروت عائشة رضى الله عنها قالت : « جاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ ! » رواه الشيخان .

ثم تتسلسل الفضائل التشريعية التى لا بد منها لحماية المجتمع ، فتشيد الشريعة المطهرة بالبر بذوى الأرحام ، ثم تتأكد صلتها وتتوثق توثقا يقوم على تركيزه فى النفوس والأخلاق ، ذلك التضافر الوثيق الذى جاء فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة . قال الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا »

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يبسط له في رزقه ، وأن ينسأله في أثره ، فليصل رحمه » رواه الثلاثة .

ويأتي بر الأتباع ، والمراد بهم الخول والمماليك . يروي أبو داود والترمذي في صحيحيهما عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : « كنت أضرب غلاما لي فسمعت صوتا من خلفي : اعلم أبا مسعود ، مرتين ، لله أقدرُ عليك منك عليه ! فالتفتّ فإذا هو النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلتُ : يا رسول الله هو حر لوجه الله . قال : أما لو لم تفعل للفحتك النار ، أو لمستك النار » .

فتلك المبادئ الرحيمة التي وردت بلسان صاحب الشريعة المطهرة ، شاهد عدل على أن خلود تلك الشريعة وقيامها على أسس صالحة ومناهج من الخير قويمة ، آية الآيات على ملابستها لكل زمن ، ومسايرتها لكل جيل .

ولم تكن تلك الشريعة في سمو مبادئها معنية بتلك الأخلاقيات التي تخلع على المجتمع أمثل المناهج وأنبل الأشكال ، وتحوطه بسياج منيع من الأخلاق الفاضلة فحسب ، بل هي معنية أيضا بتنظيم الأسرة وحماية الفرد ، ورعاية ما لكل على أخيه من الحقوق المفروضة ، فقد عنيت الشريعة بنظام الأسرة ، وهي أول حجر في بناء المجتمع ، فشرعت فيما شرعت قيود النكاح في الزيجة ، وشروطه وأحكامه وأركانه ، ثم موانع النكاح الشرعية ، وبيان المحللات والمحرمات من النساء ، ثم الولاية على النكاح ، ثم في الوكالة بالنكاح ، ثم في الكفاءة ، ثم في المهر ، ثم في وجوب المهر . ثم عن الحالات التي يجب للزوجة فيها نصف المهر ، والتي لا تستحق فيها شيئا منه ، ثم عن شروط المهر وقبضه وما للمرأة من التصرف فيه ، ثم في ضمان المهر وهلاكه واستهلاكه واستحقاقه ، ثم في قضايا المهر ، ثم في نكاح المسلم للكتابيات ، وفي النكاح الغير الصحيح والنكاح الموقوف ، وهكذا مما يتصل بتنظيم حياة الأسرة وإقامتها على أسس السعادة والرخاء ، مما سوف نعالج بيانه في أعداد تالية ، إن شاء الله ؟

عباس طه



(الانتشار الاسلامى بين مختلف الشعوب لا يمكن وقفه)

(وأثر الجامعة الأزهرية فيه)

جاء فى جريدة (لا سومور فودوا السويسرية) Le Semeur Vaudois تحت عنوان (على ذكر خريطة) (١) ما يأتى :

«يعلم الناس أن للاسلام قوة انتشار عظيمة. وقد عالجت هذا الموضوع مجلات وجرائد كثيرة جدا . ونحن ننشر هنا للتدليل على صحة هذا الأمر خريطة ذات دلالة قوية فى هذا الموضوع ظهرت فى عـدد شهر فبراير سنة ١٩٣٨ من مجلة (ليفانجلياش دانشلاند) . وهى منقولة من كتاب الأستاذ (بول شمتز) المطبوع عند جولدمان بمدينة لبزج . وهى توضح بطريقة مؤثرة جميع الممالك التى أصبحت إسـلامية محضة ، وجميع البقاع العالمية التى انتشرت فيها طلائعه ، وخاصة ما كان منها فى أفريقا وآسيا .

« وقد ظهر مقال للاستاذ (مينولف كوسترس) فى مجلة (دائش رندشو) فيه تفصيلات عن هـذه الحركة الانتشارية ، جاء فيه : « إنه من مائة وثلاثين مليونا من الأفريقيين أصبح سبعون مليونا يسيرون تحت لواء النبى . وقد أصبح جميع شمال أفريقا إسلاميا . وقـد كان عدد المسلمين فى مستعمرة (دائش أوستافريقا) مائتين وخمسين ألفا قبل الحـرب الماضية ، فأصبحوا الآن ثلاثة ملايين! وتأثير الاسلام يمتد حتى جنوب أفريقا. والسبب فى ذلك أن الجامعة الأزهرية بالقاهرة ، وهى مركز الدعوة الى الاسلام ، ترسل مندوبين غيورين الى جميع الأقطار الأفريقية . وتصدر جرائد كثيرة فى البلدان الـكبيرة ، وترسل الى تلك البقاع حاملة رسالة الـكفاح ضد المسيحية ، والثقافة النصرانية الى وسط تلك القارة الـكبيرة » . انتهى ما قاله الأستاذ مينولف كوسترس .

---

(١) نشر الاستاذ شميتز Shmitz كتابا أسماه (الاسلام فى الغد) ذكر فيه ما يصادفه الاسلام من الانتشار العظيم وخاصة فى هذا العصر فى أفريقا وآسيا حتى يـكاد لا يدع فيهما مكانا لغيره . وقد نشر خريطة لون الممالك الاسلامية فيها بلون أسود يتضح منها أن هاتين القارتين تـكادان تصبحان إسلاميتين صرفا .

« وقد بين الأستاذ د . ج . ريشتر ، وهو عالم إخصائى فى هذه الشئون فى فصل مفيد جدا نشره عن التطورات البعيدة المدى التى حدثت فى العالم الاسلامى جاء فيه قوله : « إن التطور الاسلامى قد أصبح من أكبر الحوادث التاريخية للعصر الحاضر ، فيجب تتبعه بأكبر ما يمكن من الانتباه » انتهى .

هذا ما جاء فى جريده (لوسومور فودوا) السويسرية ، وهو موضوع كما يعرف القراء ليس بحديث العهد ، فقد كتب جميع المبعوثين الدينيين الأجانب عنه بحوثا ضافية ، أشهرها ما نشره الكاردينال لافيجرى Lavigeri الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد شكا مر الشكوى من فشل الدعوات النصرانية فى القارة الافريقية ، وقال إن الدراويش البسطاء ، والتجار الذين يجوبون تلك الأقطار ينشرون الاسلام أينما حلوا ، فيقبل عليهم الناس أيما إقبال ، ويعاهدونهم على الاسلام دون أية مقاومة .

وقد أيد الكردينال لافيجرى مبعوثون كثيرون ، ولا يخفى أن هؤلاء يتذرعون للتحبيب فى ملتهم بالمال الوفير ، وبالوسائل التعليمية والتطبيبية ، ولكن كل ذلك لم يجدهم نفعا . حتى قالوا إن من يصبأ الى ملتهم من المتوحشين لا يلبث أن يهرب الى المسلمين ، وإن كان لا يجد لديهم بعض ما يجده عند أولئك الدعاة من العيش الرغيد .

ينصح الأستاذ رشتر فى البحث الذى نشره عن تطور العالم الاسلامى ، المهتمين بأمر الدعوة الدينية ، أن يتتبعوا بانتباه عظيم حركة ذلك التطور ، وماذا يفيدهم ذلك التتبع الدقيق ؟ أليس الأولى أن يدرسوا العلة الحقيقية فى هذا التهافت على الاسلام من أمم وشعوب وقبائل عريقة فى الوثنية ، عجزت جميع المغريات المادية عن تحويلها عنها ، ونجحت دعوة مجردة من جميع المسولات لنشر هذا الدين ؟

أما وقد أغفلوا ذلك فنحن نتولى بيان هذه العلة خدمة للعلم والفلسفة والدين ، فنقول :

تلك العلة هى أن الاسلام دين سهل ترتاح له النفس ويستسيغه العقل بدون شرح ولا تعمق فى التدليل ، يجد فيه كل من الساذج والمثقف ثلجا فى الصدور ، وسكنا فى القلب ، يهب على الأول من ناحية ملاءمته للفطرة الانسانية ، ومناسبته للغرائز الجبلية ، وعلى الثانى من جهة ما يُفيض عليه من نور يكشف له من معضلات التدين ، ومشكلات الاعتقاد ، ما كان يحيك فى صدره ولا يجد له مصرفا ، ويَرين على صدره ولا يصادف منه مخرجا ، فلا يعود يشعر بحرج فى نفسه يقيمه ويقعده ولا يرى عنه مَعْدِلا . وهذا ما أشار اليه الحق جل شأنه بقوله : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، وقوله تعالى : « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

هذا الشفاء للصدور هو الذى يحمل النفوس على الترامى على الاسلام لأول معرفتها به ،

حتى يمكن أن يقال إنه لا يحتاج الى دعوة غير التعريف به . وقد فتح الله مغالق قلوب أهل الجاهلية الجهلاء بهذا القرآن وحده ، فله ينسب هـذا الانتشار الذى صادفه الاسلام لأول ظهوره مما ليس له مثيل فى تاريخ العالم ، ولا يزال يفتح به الدعاة اليه القلوب الغُلف التى يتصدون لها ، وكان إذا أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو قوما الى الاسلام قرأ عليهم آيات من القرآن ، فلا يلبثون أن يمدوا اليه أيديهم يعاهدونه على الايمان .

فهذا التأثير العظيم ، لهـذا الكتاب الكريم ، لا يجوز أن يغفل البحث فى مصدره ، وخاصة فى هذا العصر ، عصر التحليلات المعمقة ، والمقارنات المدققة . أما التفكير فى صده فما لا سبيل اليه . فلقد عملت على هـذا الصد جماعات وأمم فى خلال تاريخه فلم يستطيعوا أن يضعفوا من توثبه ، بل زادوه قوة على قوته . وقد أنبأ الله المسلمين بأن كل صد لهذا الدين محكوم عليه بالفشل مهما كان مصدره ، ومهما كانت الوسائل التى تبذل فيه ، فقال تعالى : « ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون »

وقد صدق هذا الوعيد مرات لا تحصى فى ظروف تاريخية معروفة . وقد تحقق فى هذا العصر على أوضح ما يكون . فإن دعاة الملل يصرفون ملايين الجنيهات ليضعفوا بها من سريان هذا الدين فلم يحصلوا على طائل ، فأنفقوا أموالهم وباؤوا بالفشل كما قال وعد الله بذلك وأيده فى آيات أخرى منها : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

ولو كان الاسلام دينا يمكن صد تياره لأمكن ذلك فى مثل هـذا العهد الذى طمت فيه الشكوك ، وعمت فيه الشبهات ، ونسى الناس فيه أنفسهم ، من الضوضاء الفاتنة المصمة ، التى تحدثها هذه المدنية الساحرة . وإنك لتراه على عكس ما كان متوقعا ، تراه يخوض غمرات هذه الفتنة العمياء فيفتح فيها الى القلوب طريقا . ألست ترى خفوف الناس فى كل بلد من بلاده الى تأليف الجمعيات للتذكير بآياته والإهابة الى بيناته ، وانتداب الأفراد الى إصدار المجلات لنشر فضائله ، والاشادة بذكر دلائله ؟ وقد تعدت هذه الحركة مواطنه الى البلاد الأجنبية فكثر الباحثون فيه ، والمعجبون به ، مما نلم به فى كل عدد يصدر من هـذه المجلة نقلا عن المصادر العلمية الوثيقة .

فإذا كان هـذا كله والفتنة متغلبة ، والشبهات متوثبة ، والنفوس منصرفة ، والعقول معقولة ، فما ظنك حين تنجاب هذه الكِسَف عن الصدور ، وتزول هـذه الغشاوات عن العيون ، وينشط الناس لتنور الحقائق واتباعها ، وتعرف الأباطيل واجتنابها ؟ عند ذاك ترى ما لا يخطر لك ببال من تدافع الناس بالمناكب دخولا الى حظيرة هذا الدين ، وفى الوقت نفسه تعرف أن ثوران هذه الشبهات التى كنت تشكو منها كانت سببا مباشرا فى تجلية حقائق هذا الدين ، فكأنها كانت محكا له .

محمد فريد وجدى

اقامة الصلاة الجامعة لاجل السلام

بأمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغى يؤم المصلين

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فأوفد حضرة صاحب المعالى أحمد حسنين باشا رئيس ديوان جلالته ، الى حضرة صاحب الدولة حسن صبرى باشا رئيس مجلس الوزراء ، بالرسالة الملكية الكريمة التالية :

« فاروق الأول ملك مصر بعون الله .

« بما فطر عليه من حب السلام و الوئام بين الأمم ، يدعو المسلمين فى مصر والسودان ، وإخوانه المسلمين فى سائر الأمصار ، الى صلاة جامعة تقام ليلة النصف من شهر شعبان الحاضر المبارك ، بين صلاة المغرب والعشاء ، تتلوها توجهات الى الله سبحانه وتعالى ، ودعوات بأن يرسل رحمته على العالم ، ويعيد اليه قريبا عهد سلام ووفاق ، يداوى جراح الانسانية ، ويعلى قدر المدنية ، وأن يقى بلاد المسلمين من كل شر ، ويعلى قدر الاسلام والمسلمين » .

***

وقد أذيعت هذه الرسالة بالراديو لإبلاغها للعالم الاسلامى بالموجة القصيرة وبالموجة المتوسطة .

***

تصريح لفضيلة الأستاذ الامام عن هذه الصلاة

وقد أفضى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام لمندوب جريدة المقطم عقب صدور هذا الأمر الكريم بما يلى :

« إن النداء الملكى السامى الكريم ، يدل على عاطفة كريمة نحو العالم جميعه ، لا فرق بين المسلمين وغير المسلمين ، وعلى حب السلام بين الأمم ، وعلى كراهة شديدة لما يجرى فى العالم الآن من التخريب والتدمير والتقتيل .

« واتجاه جلالة الملك المعظم الى المسلمين جميعهم فى بقاع الأرض ، والعبارة الكريمة التى اختارها ، من نداء المسلمين بوصف الإخاء الاسلامى ، يبينان بأجلى بيان مقدار عناية جلالته بالمسلمين جميعهم ، وحبهم جميعهم حب الأخ لأخيه ، اتباعا لقول الله تعالى « إنما المؤمنون إخوة »

« والرجاء عظيم فى أن يقدر العالم جميعه هـذه العاطفة الكريمة حق قدرها ، وتستيقظ فى الأمم عاطفة الإخاء الانسانية حتى تنتهى الأحـوال المكدرة ، ويحل الصفاء والسـلام فى العالم » انتهى .

وقد أدى حضرة صاحب الجلالة الصلاة الجامعة بعد المغرب من ليلة النصف من شعبان فى مسجد الفتح ، وقد أم المصلين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام . وبعد صلاة الركعتين التى نص عليهما فقهاء الحنفية والمالكية ، دعا فضيلته الدعاء الذى سيأتى بعد .

وقد تولى فضيلة مدير المساجد إذاعة لاسلكية تضمنت كيفية أداء هذه الصلاة والدعاء المأثور فيها ، وفاقا لما تضمنته الرغبة الملكية السامية .

وهـذا نص الدعاء البليغ الجـامع الذى فاه به حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام عقب الصلاة :

« لا إله إلا الله الحليم الكريم ، رب العرش العظيم ، نحمده وهو الحقيق بالثناء ، ونضرع اليه وهو المقصود بالدعاء ، ونصلى على خاتم أنبيائه ورسله ، وعلى آله الأطهار ، وصحبه الأخيار .

« إلهى أنت أكرم من قصد اليه المضطرون ، وأمل فيما لديه الراغبون ، نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسـلامة من كل إثم ، لا تدع لنا ذنبا إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرجته ، ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها ، يا أرحم الراحمين .

« إلهى أسرف الناس فى العصيان ، وتمادوا فى الطغيان ، فإن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، لكننا نلجأ الى عزتك ، ونستجير برحمتك ، ونطلب عفوك ، ونستمنح رضاك .

« إلهى نسألك أن ترفع عن العالم غضبك ، وأن ترسل عليه رحمتك ، وأن تعيد اليه عهد سلام يداوى جراحه ، ويكشف بلواه ، وأن توقظ فيه بنفحة من النفحات الإلهية عاطفة الإنسانية ، وتزيل عنه أحقاده التى أكلت القلوب ، وغطت على العقول ، وأظمأت النفوس الى الدماء ، وحببت اليها الخراب والدمار .

« إلهى أسألك أن تصون بلاد المسلمين من كل سوء ومكروه ، وأن تعيد الى الاسـلام عزه ومجده ، وأن ترد الناس الى الحق والعدل ، وتأخذ بيدهم الى الصراط المستقيم .

« إلهى أسألك أن تقى مصرنا العزيزة من الضر ، وأن تحفظ لنا مليكنا المحبوب فاروقا الأول ، وأن ترعاه برعايتك التى لا يخذل من شملته ، ولا يضام من أظلته ، أنت حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . »

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

وقعة احُد — درس عملى فى وجوب إطاعة القيادة العليا

لقد أصاب الجاهليين من اندحارهم ببدر شر عظيم ، فقد قتل سبعون من أشرافهم ، ووسموا بعار لا يمحوه إلا انتصار عظيم الشأن ينالونه من المسلمين ، ليستردوا به مكانتهم من قلوب العرب ، باعتبار أنهم القائمون على تمثيل الدين الذى يقدسونه ، وحماية البيت الذى يحجونه .

وكان أشد ما يحفزهم للتفكير فى حل جماعة المسلمين ، والاستبسال فى مقاتلتهم ، أنهم بقيامهم فى طريق تجارتهم الى الشام ، يوصدون فى وجوههم بابا من الرزق ، لو ظل موصدا أصبح مُقامهم فى مكة من المحال ، واضطروا الى أن يعيشوا معيشة البدو الرُحَّل ، ييممون منابت الكلأ حيث كان ، كما يفعل البدو الذين يعيشون على ما يقتنونه من الأنعام ، وهى حياة لم يألفوها ، بَلهَ أنها تضطرهم لترك البيت وشأنه يتولى أمره من يستطيعه ، فيسرع اليه المسلمون ، ويكون فى ذلك القضاء الأخير عليهم وعلى ملتهم .

والذى جعلهم يلمسون هذا المصير الحتم ، أنهم لما أدركوا استحالة وصولهم الى الشام من طريق يثرب ، عولوا على اتخاذ طريق آخر اليها من ناحية العراق ، فأرسلوا قافلة تجارية من ذلك الطريق يحميها فريق من أشداء قريش ، معهم سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحويطب ابن عبد العزى ، وهم من صناديد قريش ، فبلغ خبرهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فأرسل لملاقاتهم كتيبة من مائة راكب تحت إمرة زيد بن حارثة ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ، فالتقوا بالقافلة عند ماء اسمه القردة بنجد ، فتقاتل الفريقان ، وانتصر المسلمون وغنموا التجارة ، وهرب حماتها قانعين من الغنيمة بالإياب . فأدرك المشركون أن لا منجاة من المسلمين إلا بإبادتهم ؛ فأسرعوا للعمل على ذلك قبل أن يخرج الأمر من يدهم . فلندعهم قليلا لنرى ماذا حدث فى جماعة المسلمين بعد وقعة بدر .

الأعمال الاسلامية بعد وقعة بدر :

(غزوة بنى قينقاع) — لما حل النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، كان بجوارها قوم من اليهود يقال لهم بنو قينقاع كانوا قد عقدوا بينهم وبين المسلمين معاهدة عدم اعتداء . ولكنهم

لما آنسوا انتصار المسلمين ببدر ، أمضّهم هذا الأمر وأخذوا فى معاكسة المسلمين ، فاعتدوا على سيدة من نساء الأنصار . فدعا النبى رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى . فقالوا له : « يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقيتنا لتعلمن أنا نحن الناس » .
فأمره الله أن يبلغهم قوله تعالى : « ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا (يريد المسلمين وجيش المشركين ببدر) ، فئةٌ تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .
فلم يرفعوا بهذا القول رأسا ومضوا فى بغيهم . فحاصرهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فأدركهم الرعب ، فطلبوا الخروج بأنفسهم دون أموالهم . فقبل رسول الله طلبهم ، وجَلَوا قاصدين الشام .

(غزوة السويق) — لما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر قتل ابنه فى معركة بدر ، هاج هائجه وأقسم أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمدا ، وسوّلت له حمية الجاهلية أن يخرج فى مائتين من رجاله ، وقصد أن يقابل رئيس بنى النضير من اليهود ليستنصر بقومه ، فلم يسمح بمقابلته ، فأرسل بعض رجاله فحرقوا نخلا بجوار المدينة ، وصادفوا أحد الأنصار فقتلوه . فخرج إليه النبى صلى الله عليه وسلم فى مائتين من المسلمين ، فلما بلغه ذلك أدركه الرعب ، فهرب هو ورجاله ، وأخذوا يخففون أثقالهم بالقاء ما لديهم من الدقيق المتخذ من الحنطة والشعير ، ويسمونه السويق . فسميت هذه الغزوة لهذا السبب بغزوة السويق .

(زواج على بن أبى طالب بفاطمة الزهراء) — فى هذه السنة وهى الثانية ، تزوج على، وعمره إحدى وعشرون سنة ، بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنها خمس عشرة سنة . وفيها دخل رسول الله بعائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين .

(غزوة بنى غطفان) — دخلت السنة الثالثة بعد الهجرة ، وفى ربيع الأول منها أجمع بنو ثعلبة ومحارب من غطفان على الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم رسول الله فى أربعمائة وخمسين رجلا . فلقيه رجل منهم يقال له دعثور ، فلما وعى منه الاسلام ، عاد الى قومه وحضهم على الدخول فيه ، فأسلموا جميعا .

(غزوة بحران) — نمى الى النبى صلى الله عليه وسلم أن جمعا من بنى سليم يريدون الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه ، فهرب المغيرون .

(سد طريق العراق على تجارة قريش) — لما لم يطق المشركون من أهل مكة صبرا على انقطاع تجارتهم ، حاولوا الاتصال بالشام من طريق العراق تحت قيادة أبى سفيان بن حرب وغيره من صناديدهم ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتيبة من جنوده فاستولوا على قافلة التجارة وهرب حماتها .

(غزوة أحد) — عود على بدء — درس عملى فى وجوب إطاعة القيادة العليا :

قلنا لما آنس القرشيون أن طرق التجارة استدت فى وجوههم ، لم يبق لهم إلا أحد أمرين : إما الاستماتة فى التغلب على المسلمين ، أو الهجرة من مدينتهم والتفرق فى الأرض لطلب الرزق ، فآثروا الوجه الأول ، واجتمع نحو ثلاثة آلاف رجل منهم تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، ومعهم الأحابيش حلفاؤهم (١) ، وأبو عامر الراهب ومعه عدد ممن على شاكلته . وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة ، وساروا حتى نزلوا مقابل المدينة بذى الحليفة .

فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبرهم ، استشار أصحابه فى البقاء بالمدينة والدفاع فيها ، أو فى الخروج اليهم ؛ فرأى أكثرهم أن الخروج اليهم أمثل ؛ فسار سحرا على رأس ألف رجل حتى إذا بلغ (الشوط) ، وهو بستان بين أحد والمدينة ، نكص عبد الله بن أُبَىّ شيخ المنافقين على عقبيه ، ونكص معه ثلاثمائة ممن هم على شاكلته .

فلما رأت طائفتان من المؤمنين ممن كانوا قريبى عهد بالاسلام تخاذُلَ هذه الجماعة ، تولاهما الخور ، وكادتا أن تنحوا نحوهما ، فعصمهما الله من ذلك . وفى ذلك نزل قوله تعالى : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وتحدث بعض المسلمين فى وجوب قتال المتخذلين ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى : « فما لكم فى المنافقين فئتين (أى ما لكم افترقتم فى أمرهم الى رأيين) ، والله أركَسَهم بما كسبوا ، أتريدون أن تَهدُوا من أضل اللهُ ، ومن يضلل اللهُ فلن تجد له سبيلا » فتركوهم .

ثم ساروا حتى نزلوا الشِّعب من أُحُد ، وهو جبل فى الشمال الشرقى من المدينة ، جاعلين ظهورهم الى الجبل ووجوههم الى المدينة ، ونزل المشركون ببطن الوادى ، وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد (وكان لم يسلم بعد) ، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان ابن أمية . واستحضر الرماة وكان عددهم خمسين فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل ، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم سواء أكان المسلمون منتصرين أم منهزمين . فابتدأ القتال بالمبارزات الفردية على عادة العرب ، ثم حملت خيالة المشركين ثلاث مرات وفى كل مرة يرتدون على أعقابهم ، بسبب ما يصيبهم من النبال ، ثم التقت المشاة وحمى الوطيس ، وكان نساء المشركين ينشدن الأناشيد يحمسن الرجال ، فلم تجدهم حماستهم نفعا ، لأن المسلمين على قلة عددهم صبروا لهم صبر الكرام ، وماهى إلاساعة حتى شعر المشركون بالخور وولوا الأدبار ، ونساؤهم يبكين ويولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب .

فلما رأى الرماة الذين وضعهم النبى صلى الله عليه وسلم لحماية ظهور المسلمين ما آلت اليه

(١) الاحابيش : قوم من قريش وكنانة وخزيمة وخزاعة اجتمعوا فى الحبشى (بضم فسكون فكسر) وهو جبل باسفل مكة ، وتحالفوا على التناصر والتعاون .

الحال من النصر ، مالوا الى النزول ، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير : إن فى ذلك مخالفة لأمر الرسول ؛ فعصوه ونزل أكثرهم ، وبقى هو وقليل من المتثبتين . فلما آنس خالد بن الوليد زوال هذه العقبة أسرع الى الذين بقوا فوق الجبل فقتلهم جميعا وأتى المسلمين من ورائهم ، فلما رأوا ذلك اختل نظامهم ودهشوا حتى صار بعضهم يضرب بعضا ؛ وقتل رجل حامل لواء المسلمين وأشاع أن محمدا قتل ، فتسرب الفشل عند ذلك الى قلوب المؤمنين ، وانقسموا الى طائفتين .

قالت أولاهما : إذا كان محمد قد قتل فعلام نقاتل ؟ فلنرجع الى أهلنا .

وقالت ثانيتهما : إذا كان محمد قد قتل فلا خير بعده فلنقاتل فى سبيل ديننا حتى نقتل .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد ثبت مكانه ، وكان بين يديه أبو طلحة الأنصارى ، وكان مناضلا مسدد الرماية ، فنثر كنانته وهو يقول : وجهى لوجهك فداء ! وكان كلما مر برسول الله رجل قال له انثر كنانتك لأبى طلحة . وعاونه سعد بن أبى وقاص وسهل بن حنيف ، وقام أمام النبي أبو دجانة سماك بن خرشة جاعلا نفسه متراسا له وهو منحن عليه ، فكان نبل المشركين يقع على ظهره ، وكان يدفع الناس عنه زيادة بن الحارث حتى وقع صريعا دونه . وقصد رسول الله أُبى بن خلف من المشركين يريد قتله ، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حُفَراً وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقع النبي فى واحدة منها فأغمى عليه ، وخدشت ركبتاه ، فأخذ على بيده ، ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائما ، فرماه عتبة بن أبى وقاص بحجر كسر رباعيته (وهى السن التى بين الثنية والناب) ، فهجم على عتبة حاطب بن أبى بلتعة فقتله ؛ وتصدى له عبد الله بن شهاب من المشركين فشج وجهه ؛ وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتى المغفر فيهما من ضربة وجهها اليه ابن قمئة من الجاهليين . وجاء أبو عبيدة فعالجهما ليخرجهما فكسرت بسبب ذلك ثنيتاه . وسار النبي وبين يديه بعض أصحابه يريد الشعب ، فلما انتهى اليه أقبلت اليه ابنته فاطمة وأخذت تغسل وجهه وتضمده .

قتل فى هذه الوقعة من المسلمين نيف وسبعون ، منهم عم النبي حمزة . وكان أكثرهم جراحة المنافحون عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصاب طلحة أكثر من سبعين جرحا ، وشلت يده .

ومثّل المشركون بقتلى المسلمين ، حتى إن هندا زوج أبى سفيان شقت بطن حمزة وأخرجت كبده لتأكلها فلم تستطع ازدراد شيء منها بعد أن لاكت قطعة منها بين أسنانها .

ثم إن أبا سفيان قائد جيش المشركين صعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فعال ، يوم بيوم بدر ، وموعدكم بدر العام المقبل . ثم قال : إنكم ستجدون فى قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى .

ثم قفل المشركون راجعين الى مكة .

ما يجب أن يستخرج من العبر من هذه الوقعة :

إن هذه الوقعة فى عرف رجال الحرب تعتبر أنها أفضت الى هزيمة المسلمين ، ولكن المتأمل

فيها لا يجدها تشبه الهزائم الحربية فى شىء . فإن المعهود فى الهزائم أنها تقتضى أن يولى المهزوم الأدبار ، وأن يتعقبه خصمه الظافر يقتل بعض جنوده ويأسر بعضا آخر ، ويستولى على جميع معسكره . فإذا كان يريد أن يفرغ من خصمه نهائيا ، كما كانت نية المشركين من قبل ، تبع العدو المنتصر المنهزمين الى مقر تجمعهم ، سواء أكان ذلك معقلا أم مدينة ، واستولى عليه وأقام فيه حامية ليمنع عودهم الى معاكسته .

ولكن الذى آنسناه عقب هذه الوقعة ، أن المشركين بعد أن انتصروا على المسلمين لم يتعقبوا فلولهم ، ولم يحتلوا مدينتهم ، بل لم يعملوا على أسر النبى وهو رأس هذه الحركة القائمة ضدهم ، وعاد من ميدان المعركة على مهل ، ثم لم يعجله شىء عن إصلاح شأنه وغسل جراحه . ومن أغرب ما يُلاحظ أن قائد المشركين صعد الجبل وخاطب المسلمين وهم على مسمع منه ، وواعدهم العام المقبل ، كأن الفريقين كانوا فى مباراة رياضية ، لا فى وقعة حربية ! ولم يعهد مثل هذا قط فى تاريخ الحروب وخاصة القديمة منها ، إذ كانت الى التفانى الحيوانى أقرب منها الى التنازع الانسانى .

ولا يمكن أن يقال إن جيش المشركين كان خلوا من وسائل المطاردة ، فقد كان فيهم مائتا خيال تحت إمرة أمهر قادة الحرب فى الجاهلية ، خالد بن الوليد ، وقد كان فى وسعه على الأقل أن يحيط النبى صلى الله عليه وسلم بخيالته فيمنعه الرجوع الى المدينة . وقد ثبت أن النبى لم يعد من ساحة القتال فى أكثر من بضعة عشر رجلا وأربع عشرة امرأة ! فأى عون من الله لنبيه أظهر من هذا فى مثل هذه المحنة ؟

وقد تبين المشركون بعد أن بعدوا عن المدينة ، أنهم ارتكبوا خطأ فاحشا فى ترك المسلمين وشأنهم ، إذ قال بعضهم لبعض : أى شىء فعلتم ، لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئس ما صنعتم ! ارجعوا .

فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، فخرج اليهم فى عسكره ولحق بهم . فلما رأى المشركون ذلك ، وقد ذاقوا استبسالهم فى الحرب ، خشوا أن تدور الدائرة عليهم ، فانصرفوا .

لا جرم أن هذا من أعجب ما يحفظه تاريخ التنازع بين الحق والباطل . وقد رأينا أن سبب هذه الهزيمة كان عصيان الرماة للأمر الذى صدر إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الله ذلك فى كتابه فقال : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تَحُسُّونهم بإذنه (أى تقتلونهم) ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون (جواب الشرط محذوف هنا تقديره : عاقبكم بالهزيمة) ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » .

محمد فريد وجدى

السنة

الرقية وأخذ الاجر على قراءة القرآن

عن أبى سعيد « أن رهطاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلقوا فى سَفْرة سافروها حتى نزلوا بحى من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيِّفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين قد نزلوا بكم ، لعله أن يكون عند بعضهم شىء ! فأتوهم ، فقالوا : يأيها الرهط إن سيدنا لدغ فسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء ، فهل عند أحد منكم شىء ؟ فقال بعضهم : نعم والله إنى لراق ، ولكنْ والله لقد استضفنا كم فلم تضيِّفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جُعلا ! فصالحوهم على قطيع من الغنم . فانطلق فجعل يتفُل ويقرأ الحمد لله رب العالمين حتى لكأنما نشِط من عقال ، فانطلق يمشى ما به قَلَبَة . قال : فأوفوهم جُعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقسموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فنذكرَ له الذى كان فننظرَ ما يأمرنا . فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له ، فقال : وما يُدريك أنها رقية ؟ أصبتم ، اقسموا واضربوا لى معكم بسهم » . رواه البخارى فى كتاب الطب .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) شرحه إجمالا . (٢) هل تجوز الرقية بالقرآن وغيره ؟ (٣) هل يجوز أخذ الأجرة على قراءة القرآن والرقية به ؟ (٤) وإذا كانت تجوز فهل لها ذلك الأثر الذى يعتقده الناس .

(١) لعل معنى هذا الحديث ظاهر لا خفاء فيه إلا فى بعض ألفاظه ، وإليك بيانها :

« يضيفوهم » معناه : ينزلونهم ضيوفا عليهم . يقال : ضيف الرجل بالتشديد تضييفا : أنزله به ضيفا . « والرهط » : أقله ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة ، وقد يطلق الرهط على أكثر من ذلك ، وهو هنا ثلاثون كما صرح بذلك فى بعض الروايات ، حتى صرح أيضا بأن عدد الجُعل الذى أخذوه ثلاثون شاة تخص كل واحد منهم شاة . « والقطيع » : هو الشىء المقتطع سواء كان من غنم أو غيرها ، والمراد به هنا الغنم كما ذكرنا . « فجعل يتفل ويقرأ الحمد لله رب العالمين » : ينبغى أن يكون التفل بعد القراءة لا فى أثنائها . وقد قيل : ان حكمة ذلك أن بركة القراءة تحصل فى الجوارح التى يمر عليها الريق فتحصل البركة فى الريق

أيضا ، فاذا أصاب محل الألم كان له أثره فى البرء . « ونشط من عقال » : المشهور فى اللغـة أن نشط بالفتح وكسر والشين معناه عقد ، وأنشط معناه حل . فالمناسب هنا أن يقال أنشط لأن معناه حل من عقال ، أى حبل . ولـكن الرواية نشط بضم النون وكسر الشين معناه حل من عقال ، وهذا لغة فيه . « وقلبة » بتحريك حروفه كلها معناه : علة ، وسميت العلة قلبة لأن الذى يصاب بها يقلب من جنب الى جنب لمعرفة محل العلة وموطن الداء . « وما يدريك أنها رقية » : الغرض من هـذا اللفظ تعظيم ذلك الأثر الذى ترتب على قراءة الفاتحة ، لأن « ما أدراك » كلمة تقال عند التعجب من الشىء ؛ وتستعمل فى تعظيم ذلك الشىء أيضا ، وهو المناسب هنا كما بينا .

« والرقية » بضم الراء وسكون القاف : تجمع على رقى بضم الراء ، يقال رَقى يرقِى رُقْية ، ورقيت فلانا أرقيه بمعنى عوذته من شر ما يؤذيه .

(٢) اختلف العلماء فى جواز الرقية بالمعنى الذى ذكرناه ، فمنهم من قال إنها لا تجوز لأن الدين الاسلامى مبنى على قواعد كونية ، وأسباب معقولة مرتبطة بمسبباتها الطبيعية ، فلا يجوز للناس أن يتحولوا عن هذه الأسباب الى الرقية والتعاويذ والتمائم ونحو ذلك ، ويذروا ماخلق لهم ربهم من العقاقير الطبية ، والأدوية النافعة لـكل داء من الأدواء . وهذا الفريق الذى ينكر جواز استعمال الرقية ونحوها يقول : إنه قد ورد فى السنة ما يؤيد رأيه هذا ؛ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن ولا تغلُـوا فيه ، ولا تجفُـوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به » . رواه أحمد . ومعنى « لا تغلوا فيه » : لا تزيدوا فيه ما ليس منه ، سواء كان فى تلاوته أو فى غيرها . ومعنى « ولا تجفوا عنه » لا تتحولوا عن المبالغة فى احترامه . فهذا الحديث صريح فى النهى عن الأكل بالقرآن سواء كان على سبيل الرقية أو غيرها . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « اقرءوا القرآن واسألوا الله به ، فان مِن بعدكم قوما يقرءون القرآن يسألون به الناس » . رواه أحمد والترمذى . ومن ذلك ما رواه ابن ماجه عن أبى بن كعب ، قال : « علمت رجلا القرآن فأهدى لى قوسا ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخذتها أخذت قوسا من نار » . ومن ذلك ما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبادة ابن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعثمان بن أبى العاص « لا تتخذ مؤذنا يأخـذ على أذانه أجرا » . فهـذه الأحاديث وأمثالهـا تدل على أن كتاب الله تعالى قد أنزل على الناس للهداية وسلوك السبل القويمة التى توصل الى صلاح المجتمع الانسانى ، والقضاء على كل مايخالف العقل والسنن الطبيعية . فيجب على المسلمين أن يستمسكوا به ، وأن يفقهوا معانيه على وجهها الصحيح ، وأن يتدبروه كما أمرهم الله به فـلا يتخذوه سلعة لا تجديهم نفعا ويتركوا قواعده الخلقية والعمرانية ، والاجتماعية التى اشتمل عليها ، فإن ذلك خسران لا شك فيه .

(٢)

هذا هو رأى القائلين بعدم جواز الرقية .

(٣) أما أخـذ الأجرة على قراءة القرآن ، فقد عرفت من الأحاديث التى أسلفناها حجة القائلين بالمنع .

أما الفريق الآخـر الذى يقول بالجواز ، فانه يقف بإزاء ذلك الـكلام موقف المستمسك بالأحاديث الصحيحة التى وردت فى هذا المقام ، فيقول للفريق الأول : وماذا تصنعون بحديث البخارى الذى معنا وأمثاله من الأحاديث الصحيحة التى لا توازيها الأحاديث التى عولتم عليها فى الصحة والمتانة ؟ وقد أجاب بعضهم عن ذلك بأن حديث البخارى وأمثاله من الأحاديث التى تدل على جواز أخـذ الأجرة على القـرآن ، وعلى جواز الرقية بالقـرآن ، منسوخة بهذه الأحاديث . ولـكن هذا الجواب غير سديد ، لأنه لا دليل على النسخ مطلقا . على أن الأحاديث الدالة على عدم جواز أخذ الأجرة على قراءة القرآن يمكن تأويلها : فقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول « لا تأكلوا بالقرآن » ، معناه : لا تطلبوا ولا تسألوا به الناس ، أما إذا أعطيتم من غير مسألة فذلك جائز لا مانع منه . والحديث الثانى صريح فى أن المنهى عنه إنما هو سؤال الناس بالقرآن . وحديث أبى الذى رواه ابن ماجه وإن كان صريحا فى النهى عن أخذ القوس فى نظير تعليم القرآن أجرة ، ولـكن يمكن حمله على خصوص هذه الحادثة .

هذا ما يقوله المحدثون وشراح الأحاديث . ويجمل بنا أن نذكر أيضا آراء الفقهاء فى هذا المقام ، ثم نبين ما عساه أن يكون الصواب :

فأما الفقهاء ، فان الحنفية يقولون : إن الإجارة على الطاعات غير صحيحة . وهذا هو أصل مذهبهم ، لأن كل طاعة عندهم يختص بها المسلم لا يصح الاستئجار عليها ، وكل قربة تقع من العامل إنما تقع عنه لا عن غيره ، فلو لم يكن أهلا لأدائها فـلا يصح أن يأخذ عليها أجرا من غيره . ويستدلون على هذا الأصل بالأحاديث التى ذكرناها . أما حديث أخذ الأجرة على الرقية الذى معنا هنـا وأمثاله فانه ورد فى حالة خاصة وهى إكرام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليست المسألة قاعدة عامة يمكن اتخاذها حجة ، وإلا كانت قراءة الفاتحة على من لدغ دواء عاما ، والواقع غـير ذلك ، فان سورة الفاتحة قـد اشتملت على عقائد وحكم ودعاء بالهداية الى الصراط المستقيم وغـير ذلك من العلوم والمعارف التى لا يمكن استقصاؤها ولم تكن يوما من الأيام دواء لمن يلدغ . وعلى فرض أنها دواء لذلك فالشرط فى إفادتها أن يكون الراق بها له حالة خاصة تقربه من الله عز وجل كهؤلاء الأصحاب الذين أخلصوا لله ورسوله ؛ فهى بمنزلة دعاء يستجيبه الله منهم . وهـذا هو رأى المتقدمين من الحنفية . أما المتأخرون منهم فقد أجازوا أخذ الأجرة على بعض الطاعات للضرورة كتعليم القرآن ، وتعليم العلم ، والأذان والإمامة ، والوعظ . هذا هو رأى الحنفية .

أما المالكية فانهم يقولون إن قراءة القرآن والأذكار والتهاليل ونحوها مختلف فى أخذ الأجرة عليها ؛ والمنقول عن الامام مالك رضى الله عنه ، أن هذه الأشياء لا يصح أخذ الأجرة عليها . فالرقية بالقرآن ونحوه مختلف فيها عندهم .

أما الحنابلة فانهم يقولون : إنه يجوز أخذ الأجرة على الطاعات وتعليم القرآن ونحوه لا بعنوان كونها أجرة ، بل بعنوان كونها صلة ينتفع بها فى نظير حبسه على أدائها . ووافقهم الشافعية فى بعض الأمور ، فقالوا تصح الأجرة على الإمامة فى مقابل إتعاب نفسه بالحضور الى موضع معين ، لا على أداء الصلاة نفسها . ومثل الامامة فى ذلك الخطبة . وأجازوا اخذ الأجرة على قراءة القرآن وعلى الأذان والاقامة ونحوهما .

هذا هو ملخص آراء المذاهب فى هذا الموضوع .

(٤) والذى ينبغى أن يعلم ها هنا أن العلماء اتفقوا على جواز الرقية عند اجتماع ثلاثة شروط : الشرط الأول : أن تكون بكلام الله تعالى ، أو بأسمائه وصفاته . الشرط الثانى : أن تكون باللسان العربى . الشرط الثالث وهو أهمها : أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، وأن المريض قد يشفى بإذن الله تعالى لا بهذه الرقية . ويدل على هذا ما رواه البخارى نفسه فى هذا الباب من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرقى نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوذات .

هذه الشروط ذكرها شراح الحديث كالحافظ ابن حجر وغيره . وقد نقل عن ابن التين « أن الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى إذا كان على لسان الأبرار من خلق الله مفيد قد يستجيبه الله تعالى ، ولكن قد عز هذا النوع فلم يوجد من المقربين من يستجاب له على هذا النحو . ومن الأسف أن الناس قد فزعوا الى تلك الرقى المنهى عنها . ومن يفعل ذلك بغير اللسان العربى المفهوم كان متهما بالشرك » .

هذا ما ذكره الفقهاء والمحدثون فى مسألة الرقية ونحوها . ولكن الناس فى زماننا هذا قد غفلوا عن معانى الأحاديث الصحيحة ، وتركوا آراء علماء المذاهب ، واندفعوا خلف المضللين الذين يتشبثون بظاهر الأحاديث فيصرفون الناس عن التمسك بالوسائل المشروعة طمعا فى أموالهم ، فكثر لذلك الدجالون ، وساعدهم على تضليل الجهلة سوء فهم بعض الفقهاء لمعانى الأحاديث والفقه . وياليتهم فهموا منها ما قد يتبادر الى أذهان الصالحين من أن تلاوة القرآن ونحوه من الدعوات الصالحات يجب أن تكون خالصة لوجهه الكريم ، لا أنها سلعة من السلع التى تبتز بها أموال الناس بالباطل . وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟

عبد الرحمن الجزيرى

رمضان

كان الكتاب حين يكتبون عن رمضان يديرون أحاديثهم فى الكثير الغالب حول ناحيته الدينية ، فيتحدثون عنه لماذا فرض ، ومتى فرض ، وهل كتب صيامه على المسلمين خاصة ، أو كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم ؛ وهل كان افتراضه لمجرد الامساك عن الطعام والشراب ونحوهما ، أو أن هناك غايات سامية وراء ذلك ، كتطهير النفس وتهذيب الروح وعلاج البدن مما عساه يلم بالنفس والروح والبدن من أوزار وأقذار ، وأمراض وأوضار .

كانوا يديرون أحاديثهم حول هذه الناحية ، ثم يفيضون فيها ، ويغفلون ناحية من نواحى الحديث فى رمضان كانت جديرة بأن تتناولها أقلامهم ، ليس لما فيها من طرافة فحسب ، بل لما فيها من مغزى سام ، وتقدير لطيف لشهر رمضان ومكانته فى نفوس المسلمين : تلك هى ناحية العادات الاجتماعية التى أحدثها رمضان بين العادات الحسنة المسلمين . ويؤسفنى أن أقول « المسلمين السابقين » لأنهم أصحاب الفضل فى غرسها ، والعناية بها ، والمحافظة عليها ؛ أما مسلمو اليوم فهيهات من كاف نفسه إحداث عادة حسنة ، بل هيهات من كلف نفسه الإبقاء على عادة من تلك العادات التى عنى بها أسلافه تقديرا لهذا الشهر وإكراما له !

ولعل من أحسن العادات الحسنة أو أحسنها ، عادة العناية بالفقراء والترفيه عنهم ، والاحتفال بهم فى هذا الشهر ، فكنت ترى قصور الأغنياء ، بل بيوت المتوسطين تغص بالفقراء رمضان كله ، يشركونهم فى فضل الله عليهم ، طيبة بذلك نفوس الأغنياء ، مبتهجة قلوبهم ، يفطر الفقراء من فطورهم ، ويتسحرون من سحورهم ، لا يستأثر الأغنياء دونهم بطيب ، ولا يتمتعون بشهى . ولقد بلغ من عناية المسلمين الأولين بتلك العادة والاهتمام بشأنها فى ذريتهم وأهليهم ، أن وقفوا ضياعهم ودورهم على الإنفاق على الفقراء فى شهر رمضان ، وقلما تجد بين الواقفين المسلمين من فاته هذا الغرض .

لهذا كنت لا تجد بين الفقراء والأغنياء ما تجده اليوم من غل وحقد وحسد وبغضاء ، ينظر كل منهم الى الآخر نظره الى العدو ، ينتظر عليه الفرص ، ويتربص به الدوائر ، بل كنت تجد بينهم التواد والتراحم ، والتعاطف والتواصل ، يتمنى الفقير للغنى المزيد من فضل الله ، ويتمنى الغنى للفقير اللطف والعون من الله .

ولقد كان من العادات الحسنة أيضا إحياء ليالى رمضان بتلاوة القرآن ، تلك العادة التى كانت شائعة فى سائر الأسر تقريبا ، حتى لقد كان من العار أن يخلو قصر أو دار من فقيه لهذا الغرض ، وكانت الأسر تتنافس فى اختيار الفقهاء ممن حسن صوته وذاع صيته ، ولا زلنا نذكر

يقال ، أن فلانا الفقيه أحيا رمضان فى أسرة فلان بكذا جنيها ، وخلعة من جيد « الجوخ والشاهى » ، وأن فلانا الفقيه اختص بأسرة فلان ، وما الى ذلك من حديث الفقهاء . وليس من التكرار أن أقول : إن من أوقاف الأغنياء أوقافا خاصة بالفقهاء فى شهر رمضان .

هـذا وإن من العادات الاجتماعية ذات الأثر البعيد بين المسلمين ، عادة التزاور فى شهر رمضان ، فكنت تجد الدور تعمر بزوارها ، تخالطهم البشاشة ، ويعلوهم البشر ، ويسودهم الصفاء ، يتذاكرون فيما بينهم شئون دينهم ، ولا ينسون شئون دنياهم ، يحاولون تفسير آية مما يسمعون ، ويتساءلون عن حكم فقهى لما يعرض فى رمضان من حوادث ، كحوادث الإفطار والإمساك ، والصلاة ، وزكاة الفطر ، ونحو ذلك ـ وما أكثر ما يعرض فى رمضان من حوادث ـ ويتشاورون فى حل مشكلة من المشكلات التى تعترض أفرادهم ، يتحققون بقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ؛ يحرمون ما حرم الله من ورق ونرد ونحوهما مما ابتدع واتبع ؛ يظلون كذلك رمضان كله ، حتى إذا أقبل العيد جددوا زياراتهم مسلمين مهنئين .

هذه بعض عادات السلف الصالح ، فأين أنتم يا شباب الجيل ؟ ! يا منتقى العصر ! يا حاملى لواء المدنيـة ! أين أنتم من تلك العادات ، وأين ما ابتدعتم منها ؟ ! والله إن الحديث عنكم لمشج ومخز ، وإن المقارنة بينكم يا مثقفون وبين أسلافكم ـ الجهلاء كما تزعمون ـ لتنجلى بالحكم عليكم بما لا يسركم ولا يرضيكم .

يا شباب الجيل ! نبئونى كيف استقبالكم لرمضان ، وكيف معاملتكم للفقراء ، وما هى عنايتكم بالقرآن ، وكيف تقضون لياليه وأيامه ؟ أتسمحون بالجواب ؟ ألا فاسمعوا قول الله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يَلْقَوْن غيا ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون شيئا » .

يا شباب الجيل « لطالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال » ! فهل فيما يجرى فى العالم من خطوب وأهوال نذير لكم ، فتقلعوا عما أنتم فيه ، وتحاسبوا أنفسكم ، وتتدبروا أعمالكم ، وتشتغلوا بالجد من أموركم ، وتحاولوا أن تعيدوا سير أسلافكم فى برهم وتقواهم ، وتوازنوا بين أعمالكم وأعمالهم ، لتعلموا أيكم خير لنفسه وأسرته ووطنه ؟ !

إن فى رمضان لفرصة للتوبة والإنابة ، وإنه خير الأوقات لاستجابة الدعاء واستنزال الرحمة ، فطهروا أنفسكم فيه بالأعمال الصالحة ، ثم ادعوه مخلصين أن يصلح أحوالكم ويجنبكم وأمتكم غضب الله وسخطه ، ويباعد بينكم وبين ما ينزل بغيركم من دمار وبوار ، ويحفظ على أمتكم أمنها وسلامتها ، ويرد عنها كيد الكائدين ، وطمع الطامعين ؟

أبو الوفا المراغى

بحوث فى المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٧ —

فى مذهب الإمام الليث :

لم يَرْم الإمام الليث فيما حاجّ به مالكا رضى الله عنهما الى إهدار عمل أهل المدينة ، وإنما رمى الى عدم إهدار آراء الأصحاب الذين ضربوا فى أنحاء المملكة الإسلامية طولا وعرضا ، وانبثوا فى معسكرات المسلمين ودواوينهم فى سائر البلاد المفتوحة والمختَطّة ، ولابسوا الأحوال والظروف التى أحاطت بهم ملابسة قريبة ، ولم يقطعوا الصلة بالخلفاء وكبار الصحابة ، بل وثّقوها بالمشاورات والمراسلات والرِّحَل ، وهم بعد هذا كله ، وقبل هذا كله ، مُثل تحتذى ، بما لهم من علم وفضل ، وإخلاص لله ، وغيرة على شريعته .

ولم يكن مالك رضى الله عنه بالذى يغيب عنه ذلك ، أو يمارى فيه ، ولكنه أراد توحيد الناس على عمل أهل المدينة الذين استقر قرار الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، فذلك أجدى على المسلمين من تشعيب الخلاف ، وتوسيع الجدال ، وتكثير صور الفقه بلا مبرر .

فمالك رضى الله عنه يرى بهذا الدافع الشريف أن المصلحة العامة للمسلمين تتحقق فى العمل بما عمل به أهل المدينة ، لأن فى ذلك جمعا للناس على عمل إن لم يكن هو عملَ الرسول فى جملته وتفصيله ، فهو عمل قد أقره وسكت عليه ، أو هو على أدنى فرض أقرب العمل من عمل الرسول .

والليث رضى الله عنه يسلم لمالك فضل أهل المدينة وسَبْقَهم ، ويقره ويشكر له هذا الدافع الشريف ، ولكنه يرى ألا يقيَّد المسلمون فى جميع بقاع الأرض بعمل أهل بلد واحد فى كل أحوالهم ، وكأنه يرى أن إقرار النبى صلى الله عليه وسلم لعمل من الأعمال لا يتضمن حكما بأن هذا العمل وحده هو الصحيح المقبول فى نظر الشرع ، فقد يكون غيره أيضا صحيحا مقبولا ، ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم لو اطلع عليه لأقره أيضا ، فعمل أهل المدينة ، حتى بعد التسليم باقراره من الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا يهدر عمل سواهم ، ولا ينبغى أن يكون ملزما للمسلمين .

وقد ورد فى رسالة الليث الى صاحبه أمثلة فقهية كثيرة يؤيد بها ما ذهب اليه ، فى حوار هادئ ، وجدال مهذب :

١ — مَثّل له بمسألة الجمع ليلة المطر ، فقد أنكر الليث أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، فعاب عليه مالك هذا الإنكار ، فاحتج الليث بأن مطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، ومع ذلك لم يجمع إمام فى الشام قط ليلة مطر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ ابن جبل الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » ، وقال فيه : « يأتى معاذ يوم القيامة بين يدى العلماء برَتوة (١) » ولم يجمع عمر بن عبد العزيز بالشام بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه فى منزله الذى كان فيه بخناصرة ساكنا .

هكذا مثّل الليث لصاحبه ، وأحب أن يقف القارئ معى أمام هذا المثال متدبرا : إن الليث يثبت أن أهل الشام وفيهم من فيهم لم يجمعوا قط فى ليلة مطر ، ولا ينكر ، ولا يسعه أن ينكر ، أن أهل المدينة يجمعون ، فهو إذاً يقرر أن الجمع وعدم الجمع كلاهما يستند الى عمل من الصحابة ، فما الذى دعاه الى أن ينكر أن يجمع أحد بين الصلاتين ليلة المطر ؟ أو لا يقوم العذر لمالك إذا عاب عليه هذا الإنكار ؟ ولكن فى المسألة باطنا غير هذا الظاهر هو الذى حمل الليث على الإنكار حين أنكر ، وعلى الإصرار حين روجع : ذلك أنه لمح العلة فى إباحة الجمع ليلة المطر ، وهى التخفيف ، ثم نظر فوجد مطر المدينة قليلا بمعنى أنه ليس فى كل الليالى مُلِحاً سَكوبا ، فاذا سكب المطر ليلة وأسحّ كان ذلك بين أهل المدينة غريبا ، ووجدوا فيه مشقة لم يألفوها ، ولم يُعدُّوا لها ، أما فى الشام فالمطر أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، كما يقول الليث ، وقد ألف أهل الشام سَحَّه وتَسْكابه ، وأعدُّوا له ما ينفى عنهم مشقته ويدفع غوائله ، فلذلك أبيح لأهل المدينة ما لم يبح لأهل الشام ، لأن المطر يشق على أهل المدينة الذين لم يألفوه ، بما لا يشق على أهل الشام . وهذا — فيما أرى — أحد المواضع التى تأثر الفقه فيها بالإقليم والمناخ ، أو بعبارة أدق ، أحد المواضع التى تفيد مراعاة الفقه لظروف الإقليم والمناخ .

٢ — ومن أمثلة الليث أيضا : مسألة القضاء بشاهد ويمين صاحب الحق ، كان يُقضَى بذلك فى المدينة ، ويقول الليث : إنه لم يقض بذلك أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام ، وبحمص ، وبمصر ، وبالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ؛ ولقد ولى عمر بن عبد العزيز ، وهو من هو فى إحياء السنن ، والجد فى إقامة الدين ، والإصابة فى الرأى ، والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق ابن الحكم : إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الواحد ويمين صاحب الحق ؛ فكتب إليه عمر

(١) الرتوة : الخطوة وما أشرف من الارض .

ابن عبد العزيز : إنا كنا نقضى بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا نقضى إلا بشهادة رجلين عدلين ، أو رجل وامرأتين .

وهذا المثال واضح ، والدليل فيه جيد ، وهو يؤيد الفكرة التى ذهبنا إليها فى التعقيب على المثال الأول ، من مراعاة الفقه لاختلاف أحوال الناس والأقاليم ، فإذا اطمأن القاضى الى يمين رجل يعرف فيه التقوى والورع فى زمان لم يكثر فيه الخداع ، وبلد لم يعهد فيه الفجور ، فليس له أن يلتزم ذلك فى كل زمان ، وفى كل بلد ، وفى كل قضاء .

٣ — ومثل الليث لمالك أيضا بمسألة مؤخر الصداق : أهل المدينة يقضون بأن المرأة متى شاءت أن تتكلم فى مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مصر والشام لامرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها ، فهى إذاً من المسائل التى يرجع فيها الى عرف المتقاضين ، ولا ينبغى أن يصار فيها الى عرف بعينه فيلزم الناس جميعا به .

ولم يقف الليث عند هذا الحد فى محاورته لمالك ، بل انقلب فى رسالته مهاجما بعد أن كان مدافعا ، فأخذ ينتقد على مالك بعض أقواله ، ويناقشه فيها ، فكان مما أورده عليه من ذلك :

(١) أن مالكا يقول فى الخليطين فى المال : إنه لا تجب عليهما الصدقة حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة ، مع أن عمر بن الخطاب كتب أنه يجب عليهما الصدقة ويترادان بالسوية ، وقد كان يُعمل بذلك فى ولاية عمر بن عبد العزيز قِبَلكم وغيره فيما حُدِّثنا ــ هكذا يقول الليث ــ والذى حدثنا به يحيى بن سعيد ، ولم يكن بدون أفاضل العلماء فى زمنه .

فهو فى هذا يأخذ عليه أنه قال بشىء يخالف عمل أهل المدينة الذى سجله كتاب عمر بن الخطاب ، وقضاء عمر بن عبد العزيز وغيره .

(٢) ثم يذكرُ له نقدا آخر يتصل برواية الحديث فيقول : « إنك تذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والأمة كلهم على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل أفريقية لايختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغى لك ــ وإن كنت سمعته من رجل يُرضى ــ أن تخالف الأمة أجمعين » .

تلك أمثلة من دفاع الليث عن مذهبه ونقده لمذهب مالك ، وكلها تدور حول ما تمسك به الليث من أن ما عليه أهل كل بلد له حجة وأصل ، وأنه لا مصلحة للناس فى جمعهم على عمل أهل المدينة .

ونحب قبل أن نترك هذا الفصل أن نلخص للقراء مذهب مالك فى الاحتجاج بعمل أهل المدينة ومن خالفه فى ذلك : فعمل أهل المدينة أنواع ثلاثة :

(١) عمل أجمعوا عليه لم يخالفهم فيه غيرهم ، وهذا حجة عند الجميع بلا خلاف ، والليث من بينهم ، وفى كلامه تصريح بذلك حيث يقول فى رسالته : « ولا تجد أحـدا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى » .

(٢) عمل يخالفهم فيه غيرهم .

(٣) عمل فيه الخلاف بين أهل المدينة أنفسهم .

فالأخيران هما محـل النزاع ، وينبغى ألا يغيب عن البال أن العمل الذى هو حجة عنـد المـالـكية بلا خلاف هو العمل النقلى ، كأن ينقل أهل المدينة تعيين المنبر النبوى ، أو محل وقوفه أو نزوله ، أو نحو ذلك ، أما العمـل الاجتهادى الذى هو عن رأى ونظر وتفقه فهو محل نزاع حتى بين المـالـكية ؟ « يتبع »

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الانس بالوحدة

للأدباء مجال مستملح فى الغلو ، وليس الغلو بمستملح إلا فى الأدب ، حتى قيل : إن أعذبه أكذبه . وقـد افتن الشعراء فى مدح العزلة عن النـاس ، ونحن نورد أحسن ما قالوه فى ذلك فى معرض الإطراف الشعرى لحسب : قال عبد المحسن الصورى :

أنست بوحـدتى حتى لوانى   رأيت الأنس لاستوحشت منه
ولم تدع التجارب لى صـديقا   أميـل إليـه إلا ملت عنـه

وقال ابن فارس اللغوى :

إذا ازدحمت همـوم القلب قلنا   عسى يوما يـكون له انفراج
نديمى هـرتى وأنيس نفسى   دفاتر لى ومعشـوقى السراج

وقال غيره :

عفـا الله عن هـذا الزمان فانه   زمان عقوق لا زمان حقوق
وكل رفيق فيه غـير موافق   وكل صديق فيه غير صدوق

دراسات في القرآن الكريم

الاصول العامة والمبادىء الشاملة فى كتاب الله

تحويلها الى جزئيات معينة

هذا هو البحث الذى قد استدعاه كلامنا فى الآية التى كنا بصدد الكتابة فيها بمناسبة بيان المحكم والمتشابه ، أو بعبارة أخرى : قطعى الدلالة وظنيها ، والذى وعدنا به القارئين فى المقال السابق ؛ وقد كانت كتابة هذا البحث بمناسبة عرض بعض الكتابين فى بحوث له للقياس والرأى ، واليكم نصه :

ألقى بعض الباحثين محاضرات تحت عنوان « الامام الشافعى واضع علم أصول الفقه » ؛ وكان مما عرض له فى تلك المحاضرات بيان معتمد التشريع الاسلامى ومستمده ، فكان مما قاله فى هذا : « كان التشريع الاسلامى فى عهد الرسول يعتمد الوحى من كتاب الله وسنة رسوله ، وكان يعتمد رأى النبى ورأى أصحابه » . ورأينا بعد هذا كاتبا آخر فى جريدة السياسة يناقش هذا الباحث فى جعله القياس والرأى من مستمدات التشريع الاسلامى ، وجعل يغرق فى ذم القياس والرأى ، وانتظرنا بعد قراءة تلك المناقشة أن يكتب الأستاذ الباحث بمناسبة تلك المناقشة تفصيلا لما قد يكون بالعبارة من إجمال كان هو مثار الشبهة ومنشا الغموض ، ولكن الأستاذ الى الآن لم يكتب شيئا فى ذلك ؛ ولما كان هذا البحث ذا مساس بأصل شرعى خطير ، كان واجبا مؤكدا وحتما مقضيا على كل من لديه حق فى هذا البحث أن يرسل من نوره على هذا الموضوع حتى يتبين للناس واضحا جليا ، وليعلموا أن الأستاذ الباحث كان غير مصيب حين أسرف فى ذم الرأى والقياس ، وحين حاول إبطال كونه مدركا شرعيا وطريقا لاستنباط الأحكام لما يجد من حوادث لم يكن على حكمها فى الشريعة نص خاص أو عام ، وليعلموا كذلك أن ما يتبادر الى الفهم من عبارة الأستاذ المحاضر ، سواء أكان مرادا له أم غير مراد ، من أن نتيجة الرأى والقياس شىء غير الوحى ، ليس هو الحق فى التشريع الاسلامى ، بل الحق والواقع غيره . ولو أن الأستاذ الباحث كان قد ناقش الأستاذ المحاضر فى هذا الموضوع من ناحية غير ذم الرأى والقياس لكان قد أصاب ، ولكان لنا العذر فى ألا نعرض لهذا الموضوع ؛ فلا بد لنا إذاً أن نبسط هذا البحث حتى يتبين فيه ما نعرف من حق يقضى علينا الواجب الدينى بنشره على الناس :

الحق أن معتمد التشريع الاسلامى ليس إلا شيئا واحدا ، ذلك الشيء الواحد هو الوحى من الله الى رسوله الكريم ، سواء فى ذلك عهد الرسول ، والعهد الذى بعده ، والعهد الذى بعده ، وهكذا الى يوم القيامة ؛ غير أن الوحى كان يظهر تارة فى ثوب قرآنى من كلام الله المعجز ، ويظهر تارة أخرى فى ثوب من فعل الرسول أو قوله ، وهو ما يسمى فى اصطلاح الفقهاء والأصوليين بالسنة ، كما يسمى الأول بالكتاب ، فليس شيء آخر وراء الوحى الذى يلبس مرة ثوب الكتاب وأخرى ثوب السنة يكون مصدرا ومعتمدا للتشريع الاسلامى .

أما الإجماع فهو غير خارج عن هذين الأصلين ، إذ المقرر عند الأصوليين ، كما هو الواقع ، أن الإجماع لا يكون إلا مبنيا على مستند من الكتاب أو السنة ، وليس هناك إجماع قط يتكون بدون استناد الى أحد الأصلين .

أما القياس فحقيقته وحاصله هو أن الواقعة حين تحدث ولم يكن قد سبق للمجتهد حكم عليها ، وليس بين النصوص ما يبين حكمها من خاص أو عام ، فإنه ينظر ما فى تلك الحادثة من معان ، وأيها هو القوى الغالب ، حتى إذا أدرك من بينها معنى كان قد علم من قبل أن الشارع قد ربط به حكما فانه حينئذ يرى ذلك الحكم حكما لتلك الحادثة . وهذا الحكم فى واقع الأمر هو لتلك الحادثة من يوم نزل الوحى على الرسول بالحكم على أصل هذا الفرع ، غاية ما هناك أن المجتهد لم يتبين ذلك إلا حين وقوع الحادثة ونظره إياها . فأنت ترى أن المجتهد لم يستأنف تشريعا ، ولم ينشئ حكما ، بل كل ما له فى ذلك هو إظهار أن تلك الجزئية تنتظمها مادة من مواد الوحى ، وتشملها قاعدة من قواعد الشريعة . هكذا شأن الاجتهاد ، وهكذا شأن القياس ، سواء كان القائس هو الرسول إن جرينا على القول باجتهاده ، أم كان ذلك من أحد أصحابه ، أم من غيرهم من أئمة المسلمين ، كأبى حنيفة والشافعى ؛ فما محصل اجتهادهم إلا تطبيق مواد الوحى ، وإظهار شمول قواعد الشريعة لما جد من حوادث ، إذ تلك القواعد قد وضعت على وجه صالح لانتظام كل ما يحدث للناس من أقضية ، وما يجد لهم من شئون ؛ وهذا من لوازم كون الاسلام شريعة ختامية أبدية صالحة لإقامة العدل والنظام بين جميع شعوب الأرض على اختلاف أمكنتها وأسباب معائشها ، وعلى تباين ألوانها وألسنتها فى متتابع العصور والأزمان .

وعليه فمآل القياس على الحقيقة ونهايته ، هى جعل الجزئية المنظورة مشمولة لمعنى نص من النصوص ، حيث إن ذلك النص لم يشملها بلفظه .

وإليك مثلا يوضح لك أمر القياس ، ويتبين به أن المجتهد حين يرى فى حادثة رأيا ليس مشرعا ولكن مظهر حكم الله فيها ومتبينه :

فاذكر إذ عرض على الامام الشافعى بيع التفاح بالتفاح متفاضلا أو مؤجلا ، فانه حين يقيسه على البر ويسويه به فى الحكم ، وهو تحريم بيعه بمثله إلا مثلا بمثل يدا بيد ، لقوله عليه السلام

« لا تبيعوا البر بالبر إلا يدا بيد مثلا بمثل » فالشافعى لم يحرم بيع التفاح إلا حين نظر فوجد من المعانى فى تلك الثمرة كونها مطعوما ، وكان قد علم قبل ذلك بطريق من طرق معرفة العلة المقرر فى علم الأصول أن الشارع رتب حكم التحريم فى البر على كونه مطعوما ، وربطه به بمقتضى النص الآنف الذكر ، فلما رأى أن العلة والباعث على تحريم البيع فى البر على هذا الوجه هى كونه مطعوما ، وأصبح مآل النص (حديث الرسول السالف الذكر) « لا تبيعوا مطعوما بمطعوم إلا يدا بيد مثلا بمثل » كان لا شك بيع التفاح بالتفاح داخلا تحت هذا المعنى ومشمولا له . فحكم بيع التفاح بالتفاح متفاضلا أو مؤجلا قد قررته الشريعة من يوم قال الرسول « لا تبيعوا البر بالبر الخ » ، ولكن الشافعى لم يتبينه إلا يوم نظر تلك الحادثة ، فسوّى التفاح بالبر فى الحكم لمّا وجد علة حكم الأصل وهو البر ، فى الفرع وهو التفاح .

بقى هناك طرق أخرى لاستنباط الأحكام الشرعية كالاستحسان والمصالح المرسلة ، والواقع أن المصالح المرسلة مهما اختلفت عبارة القوم فى تحديدها وتصويرها فهى راجعة الى القياس ، وكل ما هنالك من تفاوت أن ما اصطلحوا على تسميته بالقياس قد اشترطوا فيه أن يكون المعنى الذى يشترك فيه المقيس والمقيس عليه ، ويسوى المجتهد بسببه فى الحكم بينهما ، معنى يكون الشارع قد اعتبره بخصوصه فى خصوص حكم المقيس عليه ، كما فى المثال السالف الذكر ، فإن الإمام الشافعى يرى أن الشارع قد اعتبر ذلك الأمر بخصوصه وهو كون الشىء مطعوما علة ذلك الحكم المخصوص وهو تحريم بيع البر بالبر على هذا الوجه ، فأما إذا كان المعنى المناسب الذى يعلل به الحكم لم يشهد باعتباره بخصوصه شاهد شرعى خاص ولكن فهم من جملة تصرفات الشارع اعتبار جنسه فى جنس الحكم ، سمى نوع القياس للاشتراك فى مثل هذه العلة بالمصالح المرسلة فى اصطلاح الأصوليين .

وإليك مثلا لهذا : قام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمع القرآن الكريم بعد وفاة الرسول ، وبعد أن تردد فيه الخليفة الأول لرسول الله « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه ، وجعل عمر الفاروق يحاول إقناعه بذلك حتى أقنعه ، وبعد أن تردد فى ذلك زيد بن ثابت حين كلفه الخليفة بذلك ، حتى لقد تحدث عن نفسه بأنه لو كلف نقل جبل لكان أهون عليه مما كلفه به الشيخان ، وأنه ما زال به الفاروق والصديق حتى شرح الله صدره لذلك ؛ ترى أنا إذا نظرنا فى هذا العمل نجد أن الصحابة لم يستندوا فيه الى نص ؛ لذلك كانت حجة أبى بكر فى تردده حين عرض عليه عمر ذلك كما كانت حجة زيد بن ثابت : « كيف أقدم على عمل لم يقدم عليه رسول الله ؟ » ثم هم الى هنا لم يقيسوه على أصل خاص لعلة اعتبرها بخصوصها الشارع ، ولكن لما كان مفهوما من جملة الشريعة وروح التشريع وجوب المحافظة على أصل الاسلام وسد ذريعة الاختلاف فيه ، فهم استندوا الى ذلك الأصل فيما قاموا به من جمع القرآن الكريم .

ومن قبيل الاستدلال بالمصالح المرسلة أيضا ، ما ذهب إليه الإمام مالك وشيوخ مذهبه من جواز سجن المتهم وضربه ، وإن كان السجن والضرب نوعين من العذاب ، وهو لم يعهد بالشريعة إلا فى الحدود ، ولكن لما رأى الامام مالك أن أموال الناس قد يتعذر استخلاصها من أيدى السراق والغصاب لعدم البينة لأنهم حين يقدمون على تلك الجرائم يتحرون التفادى من أن يؤخذوا ببينة ، لما رأى ذلك أجاز هذا التعذيب حين كان الوسيلة لتحصيل الأموال وردها الى أربابها ؛ فتراهم وإن لم يستندوا فى ذلك الى نص ولا قاسوا على أصل خاص ، ولكن لما كان مفهوما من جملة الشريعة وروح الاسلام تغليب منفعة المجتمع على منفعة الفرد ، وإيثار المصلحة العامة على الخاصة ، فهم استندوا الى ذلك الأصل فى جواز إساءة الفرد لاستتباب مصلحة المجتمع . فأنت ترى أن المجتهد حين سلك هذا النوع من الاستدلال لم يحد عن طريق القياس ، بل كل الذى حصلت به المخالفة للقياس المشهور أنه فى هذا النوع من الاستدلال قد استند الى علة هى وإن لم يشهد لها أصل من الشريعة خاص ، قد شهد لها عمومات الشريعة ، وجملة تصرفاتها .

وأما الاستحسان ، فمهما اختلفت عبارة القوم فى رسمه أو تحديده ، فكلها ترجع الى أن الاستحسان عبارة عن أن يخالف المجتهد مقتضى دليل عام فى مسألة من متناولات ذلك الدليل فيعطيها حكما غير الحكم الذى هو لها بمقتضى هذا الدليل ، ولنظائرها لاعتبار قام فى تلك المسألة بخصوصها . أو قل : الاستحسان بعبارة أخصر من هذه : هو تخصيص دليل بدليل آخر .

وإليك مثالا يوضح هذا : أجاز الفقهاء أن يدخل الشخص الحمام دون تقدير للأجرة ، وبغير تعيين لمدة المكث فيه ، وبغير تقدير لما يستنفده من الماء فى تنظيف جسمه ؛ ومقتضى الأدلة الشرعية فساد عقد الإجارة والبيع إذا جهل أحد العوضين أو إذا جهلا معا ، فكان مقتضى هذا عدم جواز دخول الحمام من غير تعيين ولا تقدير ، ولكن لما كان عرف كل بلد فى مثل هذا يكاد يكون محددا لتلك الأعواض ومقدرا لها ، فإن حصل بعد ذلك تفاوت بين تقديرى المتعاقدين لم يكن إلا فى نزر يسير ، فلو نحتم تفاوض الداخل مع صاحب الحمام فى تقدير ذلك كله لفتحنا بذلك بابا لمفاوضات ربما أدت الى تخاشن فى القول ، والى مشادات ليتها كانت فى شيء كثير ، بل هى فى غير ذى قيمة ، بل فى تافه يسير لا يجمل مثله بكرامة أخوين فى وطن ، إن لم يكن فى دين ، مع منافاته لما يندب إليه الاسلام من تسامح بين المتعاملين ، وفى هذا تضييق لباب المعاملة ، وخلق للمشقة والحرج ، والحرج من أول مقاصد الإسلام إزالته واستئصاله .

فانظر تر أن المستحسن لم يشرع استنادا لاستحسان نفسه ، ولا اعتمادا على نظر عقله ، ولكنه فى استحسانه قد استند الى مادة الوحى وما أصلته من أصول وأسسته من قوانين . وما كان الاستحسان الذى يشعر به المجتهد فى مثل هذا إلا منبعثا عن شعوره بقوة ووضوح

فى الأصل الشرعى الذى استند إليه فى التخصيص والاستثناء ، وإحساسه بانزياح الشبه عنه ، كما ترى فى هذا المثال الذى أسلفناه . وبهذا ترى أن المستدل بطريق المصالح المرسلة لم يخرج عن كونه قائسا ، وقد علمت حقيقة القياس كما ترى ، وأن المستحسن لم يحد عن مقتضى أصل من أصول الشريعة .

هـذه حقيقة اجتهاد الفقهاء ، وذلك مآل الرأى والقياس فى الاسلام : لم يكن المجتهد والذى رأى وقاس إلا مطبقا لمـادة الوحى ، ومفصلا لقواعد الشريعة ، ليبين انتظامها لمـا يحدث للناس من أقضية ، وما يجد لهم من شئون ، وأن ما تقاصر عنه لفظ القاعدة الشرعية لم يتقاصر عنه معناها ؛ وكيف لا يكون كذلك ويكون كما يفهم بعض النـاس من أن الاجتهاد والرأى ليسا مستمدين من الوحى بل هو تشريع من عند صاحبهما ، ولو كان كما يفهم هذا البعض لـكان القائس والمستحسن مبتدعا ، وهل البدعة إلا أن يشرع الانسان من عند نفسه ؟ ولقد عرّفنا رسول الله مـكان البدعة وأنه النار وبئس المصير « كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار » ، لو كان كما يفهم بعض الناس ، ما كنت ترى الإمام الشافعى حين خالف الإمامين أبا حنيفة ومالـكا فى الأخذ بالاستحسان لايزيد فى رده له عن أن يقول : « من استحسن فقد شرع » ؛ فاكتفى فى الرد ببيان أن الاستحسان مفض الى تشريع المرء من عند نفسه . أما أن تشريع المرء من نفسه منكر وباطل ، أما أنه لا يدعيه من المسلمين أحـد لنفسه ، أما أنه شأن الله وحـده ، فذلك ما قد فرغوا منه ، وليس بين المسلمين من يخالف فيه ، فاذا عرفت بعد هذا أن الامام الشافعى ممن يحتجون بالقياس ويعتـبرونه دليـلا شرعيا ، عرفت أن القائس ليس مشرعا من نفسه بل مستمد من الوحى ، كما أن المستحسن كذلك فى نظر الامامين أبى حنيفة ومالك ، وكما هو الواقع .

نعم لو كان كما يفهم بعض الناس ما عنى القرآن فى كثير من آياته بذم الذين حللوا وحرموا من عنـد أنفسهم ، ولا بالغ فى تخطئتهم وتسفيههم ، فعرفهم أن التحليل والتحريم شأن الله وحده ، إذ هو الذى يعلم مواطن الضرر ومواقع المصلحة ، وما ينظم شئون الناس من شرائع وقوانين .

ولا بد لى أن أسوق لـكم آية من تلك الآيات حتى تعرفوا منها ذلك واضحا :

« قل أرأيتم ما أنزل الله لـكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لـكم أم على الله تفترون ؟ ! وما ظن الذين يفترون على الله الـكذب يوم القيامة ، إن الله لذو فضل على الناس ولـكن أكثرهم لا يشكرون » :

أكتب هذا بمناسبة ما رأيته وفهمته من محاضرة ذلك الباحث ، مع اتهامى لفهمى إلى حد كبير ، إذ لا أزال أظن أن يكون مراد الأستاذ فى محاضرته هو هذا الذى فصلته .

أما ما جاء بالمقال الذى نشرته جريدة السياسة من الإغراق فى ذم الرأى والقياس ، والإمعان فى حظره ، فذلك مالا يتفق مع ما روى عن رسول الله ، ولا مع ما مضى عليه عمل أئمة المسلمين من أصحاب رسول الله ومن بعدهم ، كما أنه لا يتفق بعد ذلك كله مع طبيعة الاسلام وحقيقته . روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم « أنه حين أرسل معاذا قاضيا الى اليمن قال له : بم تقضى إذا لم تجد حكما فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ؟ قال : قال له معاذ : نقيس الأمر بالأمر فما وجدناه أقرب عملنا به ، فقال له الرسول الكريم : أصبت » . ومثل هذا ما جاء فى العهد الذى كتبه الفاروق عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى ، فقد قال له فيه : « اعرف الأشباه والنظائر وقس الأمور برأيك » . وإذا نحن تصفحنا عمل أصحاب الرسول وخلفائهم الراشدين وفقهائهم المجتهدين ، وجدنا أخذهم بالقياس واعتمادهم عليه فى الاستدلال قد تكرر منهم ، وتعددت حوادثه حتى شاع بينهم ، وذاع أمره فيهم ، دون أن يبدى أحد منهم إنكارا ، أو يبدو على وجه واحد منهم علائم نضرة أو استكراه مما تقضى العادة فى مثله بقاطع العلم باعتماد القياس والأخذ بمقتضاه ، وهاهم أولاء الأئمة الأربعة الذين لم يبق بين المسلمين اليوم سوى مذاهبهم قد أجمعوا على الأخذ به ووجوب العمل بمقتضاه ، لا بل قد اعتمدوا ما هو دونه من المصالح المرسلة والاستحسان . وعلى العموم فإنا إذا بحثنا آراء المسلمين فى القياس وجدناهم مجمعين على حجته والعمل به ، وعلى أنه أصل من الأصول الشرعية ، ولا تجد بينهم من يخالف فى ذلك إلا فريقا من الشيعة . وإنا بعد أن عرفنا ما للشيعة من شذوذ فى الاسلام فانه لا يبقى لخلاف تلك الفرقة منهم قيمة ينخدش بها ذلك الإجماع .

أفبعد هذا وبعد ما مضى على العمل بالقياس أربعة عشر قرنا من فقهاء الشريعة وأئمة الاسلام ، يصح للأستاذ الباحث أن يكتب فيحاول منع القياس ، ويخرج فى مقال كتبه فى ساعة أو ساعتين على أعلام الشريعة وأئمة المسلمين ، الذين أفنوا أعمارهم فى بحث الشريعة وتعرف مقاصد الاسلام ، فما أقدموا على الأخذ بالقياس إلا بعد إمعان نظر وطول تمحيص وتدقيق غير مشغولين عن هذا بشأن آخر من شئون الحياة ؟ اللهم إن هذا غير ما ينبغى لمن يقدم على بحث دينى كهذا . على أننا إذا أغضينا عن ذلك كله وفرضناه غير واقع فهناك ناحية ليس للناظر اليها مناص من القول بضرورة كون القياس أصلا أسسته الشريعة ، وعلما بناه الاسلام : تلك الناحية هى أننا قاطعون بأن شريعة الاسلام هى الشريعة الختامية ، وهى الأبدية الى نهاية هذه الحياة ، وقاطعون أنها صالحة لإقامة النظام ونشر السلام بين جميع الأوساط ، وفى كل مكان ، ومتسعة لما يحدث للناس من أقضية ، وما يجدّ لهم من شئون ، فتعطى كل حادثة حكمها مهما اعترى العالم من تغير ، وطرأ عليه من تطورات ؛ ثم إنا قاطعون الى جانب هذا بأن نصوص الشريعة غير متناولة بلفظها لجميع ما يحدث من الوقائع ؛ وإذا كان الأمر كذلك فليس من سبيل الى أن تنتظم أصول الشريعة جميع الحوادث فتعطى كل حادثة حكمها سوى القياس .

وإذاً فما أمر الشريعة إلا إحدى اثنتين : فإما نحن قائلون بأن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وحينئذ فلا بد لتعميم نصوصها لجميع ما يحدث من القياس ، وإما نحن قائلون بعدم القياس ، ومن لوازم هذا ألا تكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، وليس هناك من ثالثة . أفلا يتقى الله بعد هذا من يحاول الإقدام على نظر فى الدين وبحث فى الشريعة ؟ ! ولو اتقى الله الباحثون فى الدين والناظرون فى الاسلام ، ومحصوا نظره ، وحرروا بحوثهم ، لما منى الاسلام بما منى به من تخليط وتلبيس ، وعيب وتشويه ؛ فاللهم اهدنا سبيلك الحق إنك سميع الدعاء !

وبعد ، فلنعد الى نظرة أخرى فى أجزاء الآية بعد ما بينّا المقصد الذى ترمى اليه والأصل الذى أسسته لحماية تلك الحكمة البالغة ، التى هى بقاء المحتمل من النصوص على احتماله دون توحيد لمعناه ، ولا تحديد للمراد منه ، دفعا للحرج ، وتحقيقا للرحمة .

وإن أول ما يطالعنا من روائع القرآن إذا بدأنا النظر فى أجزاء الآية ، هو التعبير عن المنادى باسم موصول « يأيها الذين آمنوا » دون أن يقول : يأيها الناس ، أو يا عبادى ، أو نحو ذلك مما كان يصح التعبير به . وإنك إذا استعرضت استعمال الاسم الموصول على أى وضع من أوضاعه مسنَداً اليه أو مسندا ، أومتعلقا من متعلقات الجملة وقيودها ، وجدت أمره يدور فى جميع ذلك على شىء واحد هو قصد المتكلم أن يجعل من الصلة مقويا لتحقيق ما يرمى اليه . وإذا تبينت هذا المعنى فيما معنا وجدته يطالعك فى بهاء وجلاء ؛ ألا ترى أن الغرض من الآية هو النهى عن المساءلة فى النصوص المحتملة إبقاء على الحكمة من ذلك ؟ فهو لهذا قد ناداهم بعنوان الايمان ، لما أن الإيمان داع حىّ ، ودافع قوى على الاستجابة والامتثال .

وإن ثانى ذلك ، ما تدركه من دقة وبلاغة فى أن قدّم إحدى الشرطيتين على الأخرى ، بأن قدم قوله : « إن تبدلكم تسؤكم » على قوله : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم » ، إذ السر فى ذلك أنه ليس من شك فى أن الناهى عن شىء يعنى كل العناية بكل وسيلة لتحقيق الانتهاء ، وليس من شك فى أن من أول وسائل الانتهاء هو بيان ما فى النهى من أضرار ومساءات للمنهيين ، فلو جاء فى وصف المنهى عنه بما يغرى المنهى بفعله لكان عابثا ومناقضا معاً ، فلو كانت العبارة هكذا « لا تسألوا عن أشياء إن تسالوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » لكان عبثا وتناقضا من وجهين : أما أولا فلأنه ليس للسائل من غاية فوق أن يوضح له ما سأل عنه ، وما داموا إن هم سألوا يوضح لهم ما سألوا عنه ، فلا جرم أنهم يسارعون الى السؤال ويتمادون فيه ، فكيف يتحقق مع هذا غرض الناهى ؟

وأما ثانيا ، فلأنه إذا عرف السائل أن مصدر الجواب والايضاح وثيق ، كان ذلك أكثر إغراء بالسؤال ، ولا شك ان الوحى هو أوثق مصادر الايضاح والتحديد ؛ لذلك كان لا بد

من تقديم الشرطية الأولى على الثانية لما فى الأولى من أن فى الإبداء أضرارا ومساءات مما هو أعون على الغرض وأبلغ فى تحقيقه .

وإنك لتزداد إيمانا بإعجاز القرآن حين تنظر فتجد أن الشرطية الثانية بعد أن كانت لو وضعت أولا تكون مغرية بالسؤال ، صارت بعد أن وضعت ثانيا من أقوى عوامل التنفير عن مقارفة المنهى عنـه ، فانه مادام فى الابداء السوء وما يكرهون كما هو مقتضى الشرطية الأولى ، فقد صار استتباع السؤال للابداء المسىء من أقوى الدوافع والمنفرات عن السؤال .

وثالث ذلك ، أنه لما كان من صور التكاليف التى كان يصح أن يكلف الله بها عباده هى أن يجعل التكاليف كلها متوحدة بحيث يكون لكل فعل من أفعال العباد حكم لا يحتمل غيره ، بأن تكون جميع النصوص محـددة المعنى لا تحتمل إلا معنى واحد ، لما كان كذلك كان عدم توحيد الأحكام عفوا من الله عن الناس ، إذ لم يحرجهم ولم يشق عليهم بحملهم جميعا على سلوك طريق واحد مع اختلاف مناهج الحياة فيهم ، ومع تباين أزمنتهم وأمكنتهم ، لهـذا كانت عبارة الآية الكريمة « عفا الله عنها » : أى عفا الله عن الأشياء التى حاول الناس بسؤالهم فيها أن يوحدوا معانى نصوصها ، ولم يجـزهم على محاولتهم ذلك مع أنهم كانوا حقيقين أن يجـزوا بتحقيقه عليهم ما حاولوه من تعسير يسر ، وتصعيب سهل ، وتضييق واسـع ، لما فى تلك المحاولة من الغفلة عن حكمة الله فيما أنزل من نصوص محتملة ، دفعا للحرج ورحمة بالعباد ، ولما فى تلك المحاولة أيضا من إشعار بالتلكؤ فى الاستجابة والتباطؤ فى الامتثال كفعل بنى إسرائيل فيما طلب اليهم من ذبح البقرة . وبذلك يتضح لك سر إيثار وصفى الغفران والحلم على سائر صفاته تعالى فى قوله « والله غفور حليم » ، إذ أن ترك جزائهم بتوحيد التكاليف بعد محاولتهم ذلك بالسؤال ، غفران لهم وحلم عليهم .

هذا ، ولما كان من أبلغ الحكم وأسماها ، ومن أعظم النعم وأوفاها ، أن يكون فى نصوص الأحكام نصوص متشابهة ومحتملة أكثر من معنى واحـد حتى يفضى الى اختلاف الأحكام باختلاف أنظار الأئمة ... لما كان كذلك ترى القرآن قد اشتد فى حماية هـذا الأصل والذود عنه بالتنفير عما قد يفضى الى جنسه ؛ لذلك تراه بعد أن نهى عن السؤال صونا لذلك الأصل، تراه قد سلك للتنفير عما يمسه سبيلا آخر ، فبين عاقبة السؤال فيمن سبقهم من الأمم ، فقال : « قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » : أى أن من قبلكم قد سألوا أن يحكم لهم المتشابه ، ويحـدد لهم المحتمل ، ويشخص المطلق ، فأدى بهم ذلك الى الحرج والمضايقة ، حتى انتهى الأمر بكفرهم بتلك الأحكام وتركهم لها . فما أسمى حكمة الله فينا ، وما أعظم نعمته علينا !! رب قد أخلصت اليك عملى ، فوفقنى للخير ، واهدنى للصواب ؟

عامر محيسن

الكلام والمتكلمون

— ٩ —

الحركة الفكرية بعد الغزالى

متفلسفو المتكلمين :

رأينا حين عرضنا لدراسة الغزالى أن هذا الإمام كان له من تأليفه غايتان جوهريتان : الأولى هى القضاء على كبرياء العقل البشرى وثقته بنفسه ، وهـذا لا يتم إلا بمهاجمة الفلاسفة وتحطيم آرائهم ومذاهبهم بعد إثبات خطئها أو ضعفها على الأقل . والغاية الثانية هى بعث الروح الدينية من مرقدها بعد أن طغى عليها سلطان العقل الذى مكنته الفلسفة الإغريقية من التباهى بعظمته وجبروته . وقد أوضح أبو حامد هاتين الغايتين بكتابيه اللذين عنون أحدهما بـ « تهافت الفلاسفة » وسمى الثانى : « إحياء علوم الدين » . وهو من غير شك لم يضع هذين العنوانين عبثا ولا عن طريق المصادفة ، وإنما قصد بالأول إخفات صوت النظر ، وبالثانى إحياء صوت الإيمان التسليمى . فلننظر الآن الى أى حـد نجح الغزالى فى هذه المحاولة التى قام بها لنصر العقيدة على العقل :

لما كانت الأمة الاسـلامية مكونة من عامة يصلحون للإيمان التسليمى ، ومن خاصة لابد لإيمانهم من سند عقلى من جهة ، وكانت النهضة العـربية لا تزال تطبع العصر بطابعها من جهة ثانية ، لم ينجح الغزالى فى أول الأمر فى دعوته ، ولم يستطع أن يفرض الايمان التسليمى على الخاصة ، ولا أن يحصرهم فى دائرة علم الـكلام المباح ، بل لم يلبث أن هب من خاصة المسلمين جماعة صبغوا عـلم الـكلام بصبغة النظر المحض ، ومزجوا آراء الاسلام بالفلسفة ، وأفاضوا فى بسط آراء المعتزلة والفلاسفة ، وحاولوا مناقشتها والرد عليها فى مؤلفات ضخمة بلغت مجلداتها العشرات . ومن هـؤلاء المتفلسفين أبو حفص عمـر النسفى ، وأبو الفتح محمد الشهرستانى ، وفخر الدين الرازى ، وعبد الله بن عمر البيضاوى ، وعضد الدين الإيجى الشيرازى ، وسعد الدين التفتازانى ، والسيد الجرجانى ، وأثير الدين الأبهرى ، وغيرهم . وإليك كلمة وجيزة عن كل واحد من هؤلاء العلماء :

(١) عمـر النسفى :

حياته ومنتجاته : هو أبو حفص عمـر نجم الدين ، وقد ولد فى نسف فى سـنة ٤٦١ هـ (سنة ١٠٦٨ م) ، وكان من أكابر علمـاء عصره فى مذهب الحنفية . وتوفى فى سـنة ٥٣٧ هـ

(سنة ١١٤٢ م) . وأهم مؤلفاته : كتاب العقائد النسفية الذى يعتبر بحق رمزا أعلى للعقيدة الاسلامية . وقد طبعه « كورتون » فى « لندرا » سنة ١٨٤٣ ، وطبع فى الاستانة ثم فى مصر . وله عدة شروح وتعليقات نخص منها بالذكر أدقها وأجلها فى رأينا ، وهو شرح سعد الدين التفتازانى . وأول ما يحاول شراح هذا الكتاب إثباته هو تبيين أن خطة الغزالى قد نزعت من علم الكلام حليته الضرورية له ، وهى النظر العقلى ، وأن هذه الحلية قد بدأت تعود إليه على أيدى النسفى وشراحه ومن نحا نحوهم .

يمتاز هذا الكتاب بميزة جديدة ، وهى مخالفته طريقة الكتب النظرية القديمة التى كانت تبدأ بحوثها بمقدمات منطق أرسطو ، وفرفريوس حسب منهج الأفلاطونية الحديثة الذى انتقل إلى فلاسفة الاسلام فساروا عليه .

خالف النسفى فى كتاب العقائد هذه الطريقة القديمة ، فبدأ مقدمته ببيان علمى ، له قيمته فى العصر الحديث ، وهو يتلخص فى أن موضوع العلم هو حقائق الأشياء ، وأن هذه الحقائق ثابتة لا سبيل إلى الشك فيها رغم إرادة المرتابين ، وأن فى مقدرة العلم الانسانى الاستيلاء عليها ، وأن وسائل الاستيلاء هى : الحواس ، والعقل ، والخبر الصادق ؛ وأن الإلهام لايصلح لأن يكون وسيلة من وسائل المعرفة ، فكان هذا التقرير من جانبه صدمة قاسية اتجهت إلى تعاليم الصوفية ، وعلى رأسهم الغزالى الذى أعلن أن الإلهام هو أمثل وسائل المعرفة وأصدقها : « قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، خلافا للسوفسطائية ؛ وأسباب العلم للخلق ثلاثة : الحواس السليمة ، والخبر الصادق ، والعقل . فالحواس خمس : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . وبكل حاسة منها يوقف على ما وضعت هى له . . . وأما العقل فهو سبب للعلم أيضا ، وما ثبت منه بالبديهة فهو ضرورى كالعلم بأن كل الشىء أعظم من جزئه ، وما ثبت بالاستدلال فهو اكتسابى . والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشىء عند أهل الحق » (١) .

يتألف هذا الكتاب بعد المقدمة من ثمان وخمسين فقرة ، تتناول كل واحدة منها مشكلة من المشاكل التى هى موضع خلاف بين الفلاسفة والمتكلمين ، أو بين أهل السنة والمعتزلة ، أو خبرا سمعيا انعقد عليه إجماع السلف .

فالفقرة الأولى : عالجت مشكلة حدوث العالم ، فقررت أنه بجميع أجزائه محدث ، وعللت ذلك بأن العالم أعيان وأعراض ، وعرفت الأعيان بأنها ما قام بذاته ، والأعراض بأنها ما قام بغيره ، ثم قررت أن الاولى إما مركبة ، وهى الأجسام ، وإما بسيطة ، وهى الجواهر . وهذه

---

(١) انظر صفحة ٦٢ وما بعدها من شرح العقائد النسفية .

الفقرة مشتملة على ثلاث مشاكل : الأولى تقرير حدوث العالم ، والثانية تألفه من جواهر وأعراض ، والثالثة القول بالذر أو الجزء الذى لا يتجزأ .

والفقرة الثانية عنيت باثبات أن محدث العالم هو الله ، وأنه هو الواحد الأزلى الحى القادر على كل شىء ، العالم بكل شىء ، السميع البصير المريد . وهذه هى الصفات الإيجابية . ثم ذكر المؤلف بعد ذلك الصفات السلبية التى يجب تنزيه الله عنها ، وهى أنه ليس بعرض ولا جسم ، ولا جوهر ولا مصور ، ولا محدود ولا معدود ، ولا متبعض ولا متجزئ ، ولا متركب ولا متناه ، ولا يوصف بالمائية ولا بالكيفية ، ولا يتمكن فى مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا يشبهه شىء ، ولا يخرج عن علمه وقدرته شىء . وقد اختتم هذه الفقرة باثبات صفات المعانى وادعائه — كما قال الأشعرى من قبل — أنها : لا هو ولا غيره . ذلك التعبير الذى اضطر اليه المتكلمون حينما أحرجهم الفلاسفة وضيقوا عليهم الخناق بقولهم : إن كانت الصفات عين البارى ، فهى ليست صفات ، وبهذا يكون قادرا بذاته ، عالماً بذاته ؛ وإن كانت غيره ، فقد استكمل بغيره ؛ وإن كانت أبعاضه ، فقد تألف . فلم يجد المتكلمون فى وسعهم إلا أن يقرروا أنها لا هو ولا غيره .

وقد عرضت الفقرة الثالثة للقرآن ، فقررت أنه كلام الله الغير المخلوق ، وأنه مكتوب فى المصاحف ، مقروء بالألسن ، مسموع بالآذان ، ولكنه ليس حالا فى شىء من هذا كله .

اعتبر الباحثون الغربيون هذه الفقرات الثلاث أهم ما فى هذا الكتاب ، لأنها تتعلق بالأصول الأساسية للعقيدة ، أما ما يليها وهو من الفقرة الرابعة الى الثامنة والثلاثين ، فقد عنى فيه المؤلف بالخلق وتعلق الإرادة الإلهية به ، ورؤية الله فى العالم الآخر ، ونعيم القبر وعذابه وسؤال الملكين ، ثم بالبعث ، ثم بحكم مرتكب الكبيرة الذى كان موضع الخلاف بين المعتزلة والسلف منذ بدء الحركة الفكرية الاسلامية . ورأى المؤلف فيها أن الكبيرة لا تمحو صفة الإيمان من المؤمن ، وأن المؤمنين لا يخلدون فى النار من أجل الكبائر ، ثم عالج بعد ذلك مسألة الاسلام والإيمان ، وأثبت أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، ثم مسائل النبوة والخلافة والإمامة .

أما آخر الكتاب — وهو من الفقرة التاسعة والثلاثين الى الثامنة والخمسين — فهو يتعلق بأحكام غير منسجمة مثل أحكام صلاة الجنازة ، وانتفاع الميت بدعاء الأحياء له ، وصدقاتهم عليه ، ومثل الحديث عن العشرة المبشرين بالجنة والحواريين ، ومثل حظر الاعتقاد بالتنبؤات ، ومثل علامات الساعة ، ومثل القول بعدم عصمة الأئمة المجتهدين ، وغير ذلك .

بان مما تقدم أن النسفى لم يزدر الفلسفة كما فعل الغزالى ، وأن كتابه — على الرغم من أنه كتاب توحيد — لم يخل من كثير من التعبيرات الفلسفية العالية ، وأنه قد احتوى هو

وشروحه المختلفة على الفروق بين الأعيان والجواهر والزمان والمكان عند الفلاسفة والمتكلمين ، وشمل كذلك اختلافات لطائفة من وجهات النظر بين الفريقين ، بعضها مبنى على أسس إغريقية محضة ، والبعض الآخر مبنى على مبادئ قد بحثت فى العصور الاسلامية بحثا دقيقا . ولهذا أخطأ أولئك المؤلفون فى الأولى وأصابوا فى الثانية .

ومن خصائص هذا الكتاب وشروحه أيضا ، أنها حملت على المنكرين والمرتابين حملات عقلية شعواء ، ويرى أحد المستشرقين أن هذه الحملات هى أحد الفروق بين هؤلاء المؤلفين ، وبين الغزالى الذى انزوى فى ركن من أركان التنسك .

ولا يمكن أن تكون هذه الملاحظة صحيحة إلا إذا حملناها على موقف الغزالى بازاء المرتابين الذين أنكروا المعرفة البصيرية ، وإلا فكيف نغضى عن نضاله العنيف الذى فاض به كتاب « التهافت » ضد الفلاسفة ، والذى تناول أهم آرائهم بالنقد والتجريح .

ويلاحظ « البارون كارادى فو » فرقا آخر بين النسفى وشراحه من جهة ، والغزالى من جهة أخرى ، وهى أن الغزالى هاجم الفلاسفة باسم الدين ، أما هؤلاء المؤلفون فقد هاجموهم باسم العقل ؛ وثمرة الخلاف هى أن الغزالى حاول إهانة العقل ، وهؤلاء اعترفوا بأهميته وضرورة تدخله فى البحث . ولا ريب أن هذا الاعتراف من جانبهم يجعل لبحوثهم قيمة فى نظر العلماء المحدثين .

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

(٢) الشهرستانى :

حياته : ولد أبو الفتح الشهرستانى فى سنة ٤٧٩ ﻫ (سنة ١٠٨٦م) فى شهرستان بخراسان . وقد درس فى نيسابور ، وهناك اطلع على مذهب الأشاعرة فاعتنقه . وفى سنة ١١١٦ م أدى فريضة الحج ، ثم اتجه إلى بغداد فأقام بها ثلاثة أعوام ، ثم عاد الى بلده وأقام بها حتى توفى فى سنة ٥٤٨ ﻫ (سنة ١١٥٣ م) .

منتجاته : يعتبر كتابه « الملل والنحل » عرضا عاما لأكثر مذاهب الفرق الاسلامية ، ولبعض المذاهب الفلسفية الأخرى من إغريقية وفارسية وعربية . وقد أسلفنا رأينا فى هذا الكتاب حين عرضنا لمصادر الفلسفة الاسلامية فى الفصل الذى أفردناه للكتب المترجمة ؛ وكل ما نقوله عن هذا الكتاب بعد الذى أسلفناه عنه ، هو أنه طبعه « كوريتون » فى سنة ١٨٤٠ م وترجمه الى الألمانية « هاربروكير » فى سنة ١٨٥٠ م . وللشهرستانى كتابان آخران ، هما « نهاية الإقدام » و « مصارعة الفلاسفة » ، الأول فى التوحيد ، والثانى فى مناقشة بعض الآراء الفلسفية .

(٣) البيضاوى :

حياته : لا نعرف المصادر التى بين أيدينا الآن تاريخ مولد عبد الله بن عمر البيضاوى ، وإنما تحدثنا فقط أنه ولد فى « بيضا » إحدى مدن الفرس . وكان والده قاضيا بتلك المقاطعة ، ثم تولى هو القضاء بعد أبيه فى شيراز ، ثم انتقل بعد ذلك الى تبريز ، وظل فيها إلى أن توفى فى سنة ٦٨٥ هـ (سنة ١٢٨٦ م) .

مؤلفاته : أشهر مؤلفاته كتبه الآتية : (ا) « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » فى تفسير القرآن . وقد فضل عامة المسلمين هذا الكتاب على غيره من التفاسير ، ولكن الخاصة الذين ينظرون الى الأمور نظرة نقد وتمحيص ، يرون أنه إما سطحى ، وإما مفرط فى الايجاز حين يعرض للمسائل التى تستوجب البحث والنقاش . وفوق ذلك فهو متأثر بكتاب الكشاف للزمخشرى تأثرا يكاد يدرجه فى عداد المقلدين . وما لم يقتبسه من الكشاف ، فهو كذلك ليس من ابتداعاته ، وإنما اقتبسه بلا تصرف من مؤلفين آخرين . وقد استطاع الباحثون الغربيون أن يظهروا للعيان الفرق بين هذا المؤلف وبين عباقرة المفسرين الآخرين كالزمخشرى والرازى رغم تقدم هذا الكتاب بين جماهير المسلمين على « الكشاف » و « مفاتيح الغيب » . (ب) « توالى الأنوار » وهو فيما وراء الطبيعة . (ج) « مصباح الأرواح » وهو فى علم الكلام . (د) « منهاج الوصول » وهو فى فقه الشافعية . (هـ) « نظام التواريخ » وهو فى تاريخ الفرس ، وقد كتبه باللغة الفارسية .

(٤) أثير الدين الأبهرى :

حياته ومنتجاته : هو أثير الدين مفضل بن عمر الأبهرى ، ولا يعرف التاريخ عنه أكثر من أنه توفى فى سنة ٦٦٣ هـ (سنة ١٢٦٤ م) .

أما مؤلفاته فأشهرها اثنان ، وهما فى الفلسفة المدرسية ، ولهما عدة شروح . وكثيرا مايرجع اليهما العلماء فى بحوثهم ، والطلاب فى استذكاراتهم . فأولهما : « هداية الحكمة » وهو ثلاثة أقسام : المنطق والطبيعيات والإلهيات ؛ وثانيهما كتاب إيساغوجى وهو « إيزاجوج » تأليف « فرفريوس » مع شىء من التصرف . ومن أشهر شروحه كتاب شمس الدين أحمد الفنارى ، وقد شرحه أيضا زكريا الأنصارى المتوفى فى سنة ٩٣٦ هـ (١٥٢٠ م) . وعلق عليه الحفناوى المتوفى فى سنة ١١٧٨ هـ (سنة ١٧٦٤ م) ، ولا يعرف بعد ذلك للأبهرى إلا ثلاث رسائل صغيرة فى الفلك .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

حياة رجالات الاسلام

عبد الله بن عمرو

هـذه شخصية من رجالات الاسلام ، وعلماء الصدر الأول ، وتلاميذ مدرسة النبوة ، تمثل ناحية جديدة من نواحى الحياة الفكرية الاسلامية ، تلك هى ناحية اتصال الثقافة الأجنبية بالثقافة الاسلامية ؛ ولسنا نفهم ، ولا أحـد يرضى عن عقله يفهم من كلمـة الثقافة الأجنبية وقتئذ معناها الواسع الذى يفهمه قارئ العصر الحاضر ، وإنما الذى نفهمه ونقصده من كلمة الثقافة الأجنبية ، ما تعطيه الحياة فى بيئة الجزيرة العربية مشرق شمس الاسلام ومطلع نوره ، على عهد البعثة المحمدية ، فقد كانت هناك جاليات من اليهود لها كتابها وثقافتها الخاصة ، تحتل جزءاً عظيما من جزيرة العرب تعيش فيه بأسلوبها الخاص ، وقـد صار هذا الجزء بعد مجىء الاسلام مركز النهضة ، ومصدر الحياة الفـكرية الاسلامية ، وكانت هناك جماعات من العرب وغـيرهم يدينون بالنصرانية ، لهم علومهم ومعارفهم الخاصة ، ينبثون فى كثير من مواطن الجزيرة العربية .

ومن الطبعى ألا تقف هذه الجماعات يهودية ونصرانية جامدة إزاء حدث الاسلام الأعظم الذى هز الـكرة الأرضية هزة نفضت عنها آثار الجمود ، وقد صور القرآن الـكريم النضال القوى بين هـذه الجماعات وبين أهل الاسلام تصويرا رائعا ، يشرح فى وضوح نظرة هؤلاء الى من يساكنونهم من أبناء البلاد ، وما فى تلك النظرة من تحقير واستصغار ، ويشرح لنا موقفهم العنيد إزاء الاسلام وشريعته . ومن الغريب أن هؤلاء المتميزين بثقافتهم ودياناتهم لم يكونوا ينشطون فى سبيل نشر ثقافتهم والدعاوة لدياناتهم ، بل كانوا حرصاء أشد الحرص على ألا يعلم أحد من الناس علمهم ، ولا يعنيهم أن يدين أحد غيرهم بدينهم ، إبقاء لهذا التمايز الذى يدلون به على سواهم ، وقد صادف هذا الجمود طبيعة صدوفة عند العرب ، منصرفة لتوافه الأمور ، لا تبحث عن دين أو ثقافة ، فاذا وجدنا منهم حينئذ من يقرأ ويكتب فقد وجدنا الفذ الذى لا يساميه أحد من أقرانه ، وإذا وجـدنا من يتجاوز القراءة والـكتابة بالعربية الى غيرها من لغات الأمم المجاورة أو الجاليات المخالطة ، فقد وجدنا علائم انفتاح العقل العربى لحياة جديدة ؛ ولـكن هل كان من ذلك شىء يمثل ظاهرة عامة فى الأمة ؟ ! لو حاول الباحث أن يتلمس هـذا النحو لأعياه أن يجد شيئا له قيمة اجتماعية تشعر بالتحول أو الاستعداد إلا بمعجزة إلهية ، وهـذا ما قام به الاسلام بانقلابه الخطير . ومهما يكن فان الشخص الذى يعنى

فى مثل تلك البيئة بشىء من العلم والثقافة لا بد أن يكون على استعداد فكرى صالح للحياة التى أنشأها الاسلام ، وهذا ما نجد شيئا منه فى حياة عبد الله بن عمرو .

كان عبد الله بن عمرو أسبق الى هداية الاسلام من أبيه عمرو بن العاص . وأصحاب الطبقات يذكرون أن أباه أسلم سنة ثمان للهجرة ، قدم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة المدينة مسلمين ، فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونظر اليهم قال : « قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » . وأخرج البخارى عن الشعبى أنه « لم يكن بين مولد عبد الله ومولد أبيه إلا اثنتا عشرة سنة » . وهذا من نوادر التاريخ .

أسلم عبد الله بن عمرو فى استواء رجولته واكتمال عقله ، وكان — فيما يظهر — قبل إسلامه من القلائل الذين تخطوا حدود بيئتهم ، فعنوا بشىء من المعارف الفكرية ، وكتبوا وقرءوا ؛ ولم يقتصر عبد الله بن عمرو فى معارفه البدائية على لغة قومه ، بل تعلم غيرها من لغات الجاليات الأجنبية التى كانت تعايش العرب فى جزيرتهم ؛ فابن قتيبة يحدثنا فى كتاب المعارف « أنه كان يقرأ بالسريانية » . وكان يقرأ التوراة ، عارفا بما فيها ؛ ففى صحيح البخارى عن عطاء بن يسار قال : « لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، فقال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » . قال عطاء : ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفا .

وقد كانت لهذه الميزة التى كان لها خطرها فى ذلك العهد ، أكبر الأثر فى توجيه حياة عبد الله بن عمرو ، وتكييفها تكييفا يتفق مع استعداده الفطرى ، فقد اتجه عبد الله الى حياة العلم ، وصرف نفسه اليها دون غيرها من جوانب الحياة الاسلامية المتكاثرة . لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستأذنه أن يكتب حديثه فأذن له ، قال : « يا رسول الله أأكتب كل ما أسمع منك فى الرضا والغضب ؟ قال : نعم ، فانى لا أقول إلا حقا » . وفى حديث أبى هريرة « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى إلا عبد الله بن عمرو فانه كان يعى بقلبه وأعى بقلبى ، وكان يكتب وأنا لا أكتب » . وروى الامام أحمد أن عبد الله بن عمرو قال : « رأيت فيما يرى النائم كأن فى إحدى يدى عسلا وفى الأخرى سمنا وأنا ألعقهما ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : تقرأ الكتابين : التوراة والقرآن ، وكان يقرؤهما » .

جعل الله قرة عين عبد الله بن عمرو فى العلم والعبادة ، فكان من أعلم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بحديثه وسننه وأقضيته ، وكان عنده منها ماليس عند غيره من علماء الصحابة ؛ وحسبنا شهادة أبى هريرة السابقة ، وهى من رواية البخارى : « ما أجد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثا منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ... » . وأبو هريرة يقول فيه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب كما فى طبقات ابن سعد : « أنت أعلمنا يا أبا هريرة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحفظنا لحديثه » . وروى المقريزى عن حيوة بن شريح قال : « دخلت على حسين بن شُفَى بن ماتع الأصبحى وهو يقول : فعل الله بفلان ، فقلت : ماله ؟ فقال : عمد الى كتابين كان شفى سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أحدهما : قضى رسول الله فى كذا ، وقال رسول الله كذا ؛ والآخر ما يكون من الأحداث الى يوم القيامة ، فأخذهما ورمى بهما بين الخولة والرباب » (مركبين عظيمين من سفن الجسر) . وفى استيعاب ابن عبد البر : روى شفى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : حفظت عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف مثل . وفى طبقات ابن سعد عن مجاهد قال « رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة فسألت عنها ، فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينى وبينه فيها أحد » .

وقد كان عبد الله بن عمرو أحد علماء الصحابة الذين قامت عليهم النهضة الفكرية فى الأقطار الاسلامية . فالتاريخ يحدثنا أنه رحل فى كنف أبيه الى مصر حينما أمره معاوية عليها ، وأقام عبد الله بها ينشر علمه على تلاميذه الذين دونوا هذا العلم وحفظوه ونشروه . قال صاحب فجر الاسلام : « كان من الصحابة الذين بمصر علماء علّموا بها وأسسوا مدرستها ، وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وقد كان عبد الله هذا من أكثر الناس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يدون ما يسمع ، وكان مع هذا كثير الاطلاع فى غير الحديث ، وقد خرج مع أبيه الى مصر عندما ولاه إياها معاوية ، ولما حضرت الوفاة عمرا استعمل ابنه عبد الله عليها فأقره معاوية ثم عزله ، ويعد بحق مؤسس المدرسة المصرية ، فقد أخذ عنه كثير من أهل مصر ، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث » . والمتأمل فى آثار الفكر الاسلامى فى مصر أول عهدها بالنهضة يلمح الصبغة الروائية تغلب عليه ، ويرى غلبة القصص والعناية بروايات التاريخ ، وأحاديث الفتن ، وهذا فى الواقع من أثر ثقافة عبد الله بن عمرو الذى أحاط خبرا بكثير من أحاديث التوراة وقصصها .

أما عبادة عبد الله بن عمرو فقد روت لنا منها صحاح السنة مواقف تجعل عبد الله رأسا من رءوس العباد الصالحين فى الأمة المحمدية ، فضلا عما كانت سببا له من التشريع الحكيم الذى رفع الله به الحرج عن هذه الأمة ، روى البخارى فى صحيحه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن

قال : « حدثني عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ فقلت : بلى يا رسول الله ، قال : فلا تفعل ، صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك عليك حقا ، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر كله . فشددت فشدد على ، قلت : يا رسول الله إنى أجد قوة ، قال : فصم صيام نبى الله داود عليه السلام ولا تزد عليه ، قلت : وما كان صيام نبى الله داود عليه السلام ؟ قال : نصف الدهر . فكان عبد الله يقول بعد ما كبر : يا ليتنى قبلت رخصة النبى صلى الله عليه وسلم » .

وفى هذا الحديث ضروب من الفقه وأسرار التشريع المرتكز على رعاية المصالح ودرء المفاسد ، والأخذ من الحياة بحظ الاستقامة القوية ، فهو :

أولاً — يصور لنا صلة الفرد بالمجتمع ، ويبين أن هذا الفرد ليس ملكا مطلقا لنفسه يتصرف فيها كما يشاء ، حتى لو كان هذا التصرف فى أبواب الخير الخاص ، ويشرح لنا حق الجماعة على الفرد باعتباره عضوا فيها وأحد مقوماتها ، فلا يجوز له أن يتصرف فى نفسه تصرفا يؤدى الى نقص حيوية الأمة ، وإضعاف نشاطها ؛ وهذا كله واضح من إباء النبى صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن عمرو مواصلة الصوم ، ولم يبال صلوات الله عليه بقول عبد الله : إنى أجد قوة ، بل قال له : لا تفعل ، وقد جاء صريحا فى طريق آخر حكمة هذا النهى : روى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو : « إنك لتصوم الدهر وتقوم الليل ؟ فقلت : نعم ، قال : إنك إذا فعلت هجمت له العين ، ونفهت له النفس ، لا صام من صام الدهر » ! ومعنى هجمت له العين : غارت ودخلت وضعف إبصارها من قلة الغذاء ، ومعنى نفهت له النفس : تعبت وكلت ، فلا تستطيع القيام بواجبها فى الحياة ، وأداء ما عليها من الحقوق .

وثانيا — فيه تصوير مقام رأفة النبى صلى الله عليه وسلم ورحمته بأمته ، وحرصه على برها وخيرها ، تصديقا لقوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وثالثا — فيه بيان حق أهل الرجل عليه ، وأن الانصراف عنهم الى مداومة العبادة يوحشهم ، وربما كان سببا لقطع صلتهم به ، ولا يخفى ما يترتب على ذلك من هدم بناء الأسرة وتعطيل النسل ، وإهمال الذرية إذا وجدت ، فلا تتوافر لها عوامل المراقبة والتربية الصالحة التى تجعلها عضوا عاملا فى الأمة ، فوق ما يكتنف ذلك من إشاعة روح الجفوة والتزمت فى أفراد الأسرة مما يكبت فيها روح التوثب والعمل النشيط .

ورابعا — فيه بيان حق الضيف ، والترغيب فى مشاركته طعامه وشرابه ، لتندفع عنه

طبيعة الحياء التي تكون عادة عند أكثر الناس إذا كانوا في بيوت غيرهم ، فاذا أحجم صاحب البيت عن مؤاكلة ضيفه انخذلت نفس الضيف وانقمعت ، وحرمت قسطها من ضيافتها .

وخامسا — في قول عبد الله بن عمرو : « يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم » تحقيق لمعجزة نبوية ، وتبيين لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .

صادق ابراهيم عرجون

من الحكم الحربية

قال حكيم : إن حازما واحدا في الحرب خير من ألف فارس ، لأن الفارس يقتل عشرة أو عشرين ، والحازم قد يقتل جيشا بتدبيره .

نقول : يشير هذا الحكيم الى عظم خطر الفنون الحربية ، فقد ينتصر جيش قليل العدد على جيش جرار بتدبير خطة يضعها قائده لا يجد خصمه أمامها محيدا عن التسليم . ولقد عرف المسلمون الأولون هذا الأمر فولوا قيادتهم الذين يعرفون بالتمهر في أساليب الحرب . وقد أحسن أبو الطيب في تجلية هذا الركن الركين في علم الكفاح فقال :

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني
ولربما طعن الفتى أقرانه ... بالرأى قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى الى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت ... أيدى الكماة عوالي المُرّان

المران على وزن رمان : معناه الرماح الصلبة اللدنه واحدها مُرّانة . وإنما سميت الرماح مراناً لأن خشبها من شجر المُرّان ، وهو باسق ، أوراقه كأوراق التوت ، وله ثمر أحمر يؤكل .

الحسن بن الهيثم

كان القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) من أزهى العصور فى تاريخ العرب ، حيث كان قد تم نقل ما نقل من اليونانية والهندية والفارسية الى العربية من كتب الفلسفة والطب والعلم . وكان العلماء الإسلاميون قد بدءوا فى شرحها والتعليق عليها وتصحيح أخطائها . وكان قد ظهر أساطين أعلام منهم فى هذه العلوم ، منهم فى الفلسفة الكندى والفارابى ، وفى الطب أبو بكر الرازى ، وفى الكيمياء جابر بن حيان ، وفى الرياضيات أبو عبد الله محمد ابن موسى الخوارزمى ، وثابت بن قرة وبنو شاكر ، وفى الفلك أبو معشر البلخى وحنين ابن اسحاق وأحمد بن كثير الفرغانى وسهل بن بشر ومحمد بن جابر الحرانى المشهور بالبتانى ، وغيرهم كثيرون لهم مؤلفات قيمة نقل أكثرها الى اللاتينية ، وكانت المراجع المعتمدة عند أهل أوروبا لدراسة هذه العلوم فى تلك العصور .

وفى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس من الهجرة) ولد الحسن بن الهيثم سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م ، وكان أول أمره بالبصرة .

فابن الهيثم شهد عند أول نشأته عصرا صاخبا بجلبة الحركة العلمية المتدفقة ، فبدأ فى صبر وأناة مرحلة من حياته كانت بغيته فيها الإلمام بنواحى النشاط العلمى فى ذلك العصر ، وأخذ يدرس كل ما وصلت إليه يداه من كتب المتقدمين والمتأخرين ، لا فى العلوم الرياضية وفروعها فحسب ، بل فى الطب وفى الفلسفة من منطق وطبيعى وما بعد الطبيعة أيضا .

ولم يكن يقنع بمجرد الاطلاع على تلك الكتب ، وإنما عنى بتلخيصها ، وبالتصنيف فيها ، وكان يبغى من ذلك ثلاثة أمور ، نقلها ابن أبى أصيبعة من خطه قال : « وأنا — ما مدت لى الحياة — باذل جهدى ، ومستفرغ قوتى فى مثل ذلك ، متوخيا منه أمورا ثلاثة : أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياتى وبعد مماتى ؛ والآخر أنى جعلت ذلك ارتياضاً لى بهذه الأمور ، فى إثبات ما تصوره وأتقنه فكرى من تلك العلوم ؛ والثالث أنى صيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم » .

بلغت شهرة ابن الهيثم مصر ، وكان صاحبها فى ذلك العهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وكان قد بلغه قوله : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . فأرسل إليه الحاكم أموالا وهدايا ، ورغبه فى الحضور الى مصر ، وخرج لاستقباله عند قدومه وأكرم مثواه ، ثم طالبه بما قال فى أمر النيل . فسار ابن الهيثم ومعه جماعة من البنائين متتبعا مجرى النيل حتى وصل الى أصوان وتجاوزها الى موضع الشلالات ، فلم يجد

الأمر متفقا وفكرته الهندسية ، فعاد الى القاهرة واعتذر الى الحاكم بخطأ تقديره ، فقبل الحاكم عذره ، واضطره لقبول منصب فى الدولة وهو كاره له ، ولما أراد التخلص منه للانقطاع الى البحث والعلم لم يجد مندوحة إلا التظاهر بالجنون والاحتجاب فى داره . فلما مات الحاكم عاد الى الظهور ، وأقام بالقاهرة الى أن توفى فى حدود سنة ثلاثين وأربعمائة أو بعدها بقليل ، بحسب رواية القفطى .

الناحية العلمية من ابن الهيثم :

من المعروف أن الطريقة العلمية الحديثة لم تنشأ إلا بعد عصر البعث فى أوروبا ، وينسب الفضل فى إنشائها الى « فرنسيس باكون » أحد فلاسفة الانجليز وكتابهم فى القرن السابع عشر . فهو أول من أوضح أن الطريقة الصحيحة فى البحث هى الاعتماد على الأمور الواقعة ومشاهدتها ، والمضى فى جمع الحوادث وتبويبها وترتيبها حتى يمكن بالاستقراء الوصول الى المعلومات الصحيحة عنها .

هذه الطريقة فى البحث التى تعد من مبتكرات العصر الحديث ، هى الطريقة التى أدرك ابن الهيثم أنها المثلى . فقد رأى ضرورة الأخذ بالاستقراء ، والأخذ بالقياس ، والأخذ فى بعض البحوث بالتمثيل ؛ وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود ، على مثل ما هو متبع فى البحوث العلمية الحديثة .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ومن هنا ندرك أن ابن الهيثم سبق باكون فى بناء الأسلوب العلمى بنحو ستة قرون . وقد بين ابن الهيثم طريقته هذه فى كتابه « المناظر » فقال : نبتدئ فى البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حال الإبصار ، وما هو مطرد لا يتغير بظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس ؛ ثم نترق فى البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه ، استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما نميزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء » .

ثم قال فى موضع آخر :

« ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التى عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف ، وتنحسم بها مواد الشبهات » .

ثم قال :

« وما نحن مع جميع ذلك براء مما هو فى طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الإنسانية ، ومن الله نستمد العون فى جميع الامور » .

كان أكثر نشاط ابن الهيثم محصورا فى الرياضيات وتطبيقاتها ، وكان إلى جانب هذا كثير الاشتغال بمؤلفات أرسطو وجالينوس .

ومما تحسن ملاحظته أن ابن الهيثم كان يبتغى من وراء طلبه للعلوم الحق الذى يقربه إلى الله ، حتى إننا نجده ينزع فى تفكيره نزعة دينية ، بل له مشاركة فى علم الكلام ، فهو يرد على الرازى فى الإلهيات والنبوات ، وله كتاب فى إثبات النبوات ؛ وهو يرد على ابن الراوندى وعلى المعتزلة فى أمر الصفات ، وفى الوعد والوعيد ، وغير ذلك .

والبحث عن هذا الحق هو الغاية التى كان يقصدها ابن الهيثم من وراء الفلسفة ، وعنده أن الفلسفة ينبغى أن تكون أساسا تقوم عليه العلوم جميعا .

وجاء فى مذكرات الأستاذ مصطفى بك نظيف : أن علماء الرياضة والفلك فى عصر ابن الهيثم كانوا يقولون إن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكسا عن سطحه ؛ فأبطل ابن الهيثم هذه النظرية القديمة ، وأقام على أنقاضها نظرية جديدة : هى أن ضوء القمر هو ضوء ثانوى أو عرضى يشرق من سطح القمر المستضىء بالضوء الذاتى المشرق من الشمس ، كما يشرق الضوء من جسم كثيف معتاد إذا وضع بالقرب من جسم مضىء بذاته ، وليس هو ضوءاً منعكسا بالمعنى الخاص بالانعكاس .

وابن الهيثم لا يكتفى بوصف الآلة أو الجهاز ، بل يأتى بشرح مسهب مفصل لكيفية صنع الجهاز . فجهازه فى الانعكاس وجهازه فى الانعطاف يختلف كل منهما اختلافا جوهريا عن نظيره الذى ذكره بطليموس .

وصنْع مثل هذه الأجهزة فى عصر لم يكن مزودا بالعدد الميكانيكية المعروفة الآن ذات المقاييس والأبعاد والتدريجات المضبوطة ، يدل على أنه قد اجتمعت فيه الصفات التى تؤهله لأن يكون واحدا من العلماء الذين اجتمعت فيهم المقدرة الرياضية الرفيعة ، مع الكفاية العملية الممتازة .

يضاف الى ذلك أن لابن الهيثم بحوثا فى علم الضوء لم يسبقه اليها أحد ، إذ كانت المعلومات فى علم الضوء قبل ابن الهيثم لا رابط يربطها ، ولا منظم ينظمها . فان اعتبر نيوتن رائد علم الميكانيكا فى القرن السابع عشر ، فابن الهيثم رائد علم الضوء فى القرن الحادى عشر .

أما فيما يتعلق بتصانيفه فى علوم الرياضيات وتوابعها ، فقد بلغت ثلاثة وأربعين كتابا . وأما كتبه فى العلوم التعليمية فقد وصلت الى خمسة وعشرين كتابا (ابن أبى أصيبعة) .

أشهر هذه المؤلفات كتاب المناظر الذى اتضح أخيرا أن كتاب الذخيرة اللاتينى ترجمة له ، وكتاب الأصول الهندسية والعددية ، وكتاب الجامع فى أصول الحساب .

شخصية ابن الهيثم :

هو رجل اضطلع برسالة علمية جديدة قام بها خير قيام ، أثبت فيها صحة نظرياته الهندسية والرياضية ، وقوض أركان النظريات القديمة التى ارتآها بطليموس وجرى عليها رجال العلم فى الزمن القديم .

وكان ابن الهيثم مستقلا فى تفكيره ، قويا فى استقرائه ، محيطا بما عرف من علم الطبيعة الى زمانه ؛ وكان قوى الخلق لا يثبط عزيمته الإخفاق ، فكان لا يكبو حتى ينهض ، كتيار اليم يعلو ويزخر عبابه إذا اعترضت الأسداد مجراه .

وكان ابن الهيثم يؤيد رأيه بشواهد مستمدة من الطبيعة ، وكان يعتبر كل ضروب النشاط الانسانى ضروبا من الفنون ، فهناك فن التفكير وفن الطبيعة وفن الدين . وكل هذا يؤدى الى أن الحياة نفسها فن .

وهذا يبين لنا بالاختصار المنهج الذى نهجه ابن الهيثم فى دراساته الكثيرة ، وهو أنه جمع فى بحوثه ومصنفاته بين عقل الفيلسوف ، وبصيرة الصوفى ، وتثبت العالم ؟

عبد الحميد سامى بيومى

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقابلة الاساءة بالاحسان

قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : « عاتب أخاك بالإحسان إليه ، واردد شره بالإنعام عليه » . وقال الجاحظ : « من قابل الاساءة بالاحسان فقد خالف الله فى تدبيره » . والذى نراه أن الجاحظ قد تعجل فى حكمه ، فان هنالك حالات من الاساءة يغنى فيها الاحسان ما لا تغنى العقوبة ، وقد يبارك فى أثرها حتى تحمل المسىء على تقويم خلقه . والمدار على تحرى هذه الحالات ، والتفرقة بينها وبين ما يعتبر مخالفة لتدبير الله .

على أن الاساءة إليك غير الاساءة على الاطلاق ، فأنت حر فى أن تعفو عمن ظلمك ، وأن تصفح عمن شتمك ، كما أنك حر فى أن تعطى من حرمك ، وتصل من قطعك ، ما دام قصدك أن تؤدبه ، ولكنك لست حرا فى أن تعفو عمن أساء الى أهله ، ولا الى الجماعة ، ولا الى من لا تملك إرادته ، ولا تعرف أيصلح الاحسان من شأنه أم يفسده .

شهر الصيام

قد يصل هذا العدد الى أيدى قرائنا وهم فى أول يوم من شهر الصيام ، واول ما يشوقهم من العنوانات الماثلة فى فهرسته قد يكون الكلام عن الصيام الذى هم فيه . والكلام عن الصيام أصبح شائقا حتى لدى غير المسلمين ، لأنه أضحى عاملا طبيا تعالج به أمراض خطيرة ، لايسد مسده فيها غيره . ومن يعلم أن أكثر الأمراض العضالة يأتى من طريق التغذى ، يدرك ما ينبنى على الإمساك عنه من قيمة صحية .

وإنما كان التغذى سببا للأمراض ، لأن الناس لا يصدرون فيه عن علم ، ولكن عن العادة والجهل والنهم . والقاعدة العامة عندهم أنه مادام التغذى سببا لاستدامة الحياة والقوة ، فالإكثار منه يعتبر استكثارا من أسباب الحياة والقوة ، إلا أن يصل الى حد الإفراط ، ولكن ليس للإفراط عندهم معيار غير ما ينتجه من أعراض الكِظَّة (١) ، ويغيب عنهم أنه قد يكون إفراط ولا يكون شعور معجل بأعراض للكظة .

ونحن لأجل أن نأتى على أفضل ما نعلمه من حكمة فرض الصيام على المسلمين ، لا نرى بدا من التوسع فى فلسفة التغذى ، فان هذه الحكمة ثاوية فى أطوائها ، فنقول :

الانسان فى حاجة الى مقادير معينة من الأطعمة المختلفة ، وهى على نوعين :

(١) أطعمة معوضة لما يدثر من مادة الجسم ، كالعضلات والأعصاب والعظام والدم ، وهى كالقمح والبقول والخضر والفاكهة .

(٢) وأطعمة مولدة للحرارة الغريزية الضرورية للحياة ، وهى السبب المباشر فى دوامها كالسكر والدهنيات والنَشَاء (بالفتح) .

فاذا تغذى الانسان ، وهو عادة يجعل غذاءه خليطا من هذه الصنوف ، هُضمت هذه المواد فى معدته وأمعائه ، وانتقلت الى الرئتين فالقلب ، ومنه الى الشرايين لتطوف بجميع أجزاء الجسم ، وتعطى كل خلية فيه حظها منه .

فإذا كانت الأغذية بقدر حاجة الجسم ، استوعبتها الخلايا الجثمانية ، وبقى الدم نقيا كما كان ، وإن كانت تزيد عن حاجته ، بقيت فى الدم ، وكيف تستطيع البقاء فيه وهو ليس بحاجة الى المزيد ؟ فتتحول الى مواد سمية ، يصيب الجسم منها بلاء عظيم ، بعد أن تكد الأعضاء التى

---

(١) الكظة : البطنة ، وأعراض ثقيلة تعترى الانسان من الامتلاء من الطعام .

وظيفتها تخليصه من السموم ، فى حمايته منها ، وتضمحل من كثرة العمل ، وتنضب عصاراتها ، وتعجز عن أداء وظيفتها ، فتتعرض الحياة للخطر ، إما بطروء أدواء خطيرة على الأعضاء الرئيسية بسبب عجزها عن القيام بأعبائها ، وتراكم السموم عليها وتصلبها ، وإما بفساد الدم ، وانشحانه بمواد غريبة عنه ، وعدم صلاحيته لأداء مهمته .

هذه هى النظرية العلمية فى تولد الأمراض وفساد الصحة ، وهى تخالف النظرية العامية ، فهم يتخيلون أن على الانسان أن يأكل ما يشتهى ، وعلى المعدة أن تهضم ما ينفعه ، وأن تلفظ مايضره ، ورأى العامة فى الأمراض أنها إما تصيبهم من برد أو من أسباب أخرى لا يعرفونها .

فإذا حدثتَهم عن ضرر الإفراط فى الغذاء ، ضربوا لك الأمثال بافراد من المصابين بالنهم يعرفونهم وتعرفهم ، ولفتوا نظرك لقوتهم وبدانتهم ، وخلوهم من الأمراض ؛ ويغيب عنهم أن هؤلاء معرضون للصعق من طريق الفجاءة ، وخير منهم الذين إذا أسرفوا على أنفسهم وجدوا جزاء إسرافهم معجلا ، فيضطرون للاعتدال . فقدتبين أن الناس من هذه الناحية على ضربين ، أحدهما يلاقى جزاء إفراطاته على الفور ، فيمرض ويشفى ، ويتكرر عليه ذلك حتى يعتدل أو يموت ؛ وثانيهما لا يحس من تجاوزه الحد بأذى ، فيصر على ما هو عليه ، حاصلا على ظاهر من الصحة والضلاعة ، حتى يفاجئك نعيه ، فتقول : كنت معه البارحة ، وكان أحسن ما يكون صحة وقوة ، فما الذى دهاه بعد أن افترقنا ؟ !

وليست تبعات الإفراط فى الطعام بقاصرة على الناحية المادية من الإنسان ، ولكنها تقع عليه فى ناحيته العقلية والنفسية أيضا ؛ فإن امتلاء المعدة بالأطعمة تستدعى قوة عصبية عظيمة تعين المعدة على هضمها ، فتنصرف قوى أعصابه الى معدته ، فلا يكاد يصلح فى أثناء الهضم لعمل عقلى ، وقد يستمر الهضم أربع ساعات بعد كل وجبة فتضيع عليه اثنتا عشرة ساعة من يومه سدى ، والانسان عادة لا ينقطع فى تلك الساعات عن العمل العقلى ، ولكنه لا يتقنه ؛ وقد عُرف ذلك منذ العهد الأقدم ، فقالوا : إن البطنة تذهب الفطنة .

هذا غير ما تسببه البطنة وارتباكاتُها العقلية من سوء الخلق ، وضيق الصدر ، والتبرم بكل شيء ، حتى يكاد أحدهم أن يمزق ثيابه لأقل بادرة ، وإذا نام استيقظ ثقيل الأعضاء ، متتابع النفَس ، متكاسلا ، متثائبا ، كأنه خارج من كابوس ، لا من نوم مجدِّد لما اضمحل من قوى بدنه .

لتخليص الانسان من هذه الشرور الحائقة بالجسم والنفس كل يوم ، نصح الله لعباده أن لا يسرفوا فى التغذى ، فقال تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « حَسْبُ الانسان من الطعام لقيماتٌ يُقمن صلبه » . وقال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » .

ولذلك أيضا فرض الله على عباده الصيام فى كل سنة شهرا . والصيام واحد من الأسس الخمسة التى بنى عليها الاسلام ، وهو بهذا الاعتبار عبادة ، القصد منها تقريب الانسان من بارئه كالصلاة والحج ، فان كانت الصلاة قد جعلت لإحكام الصلة بينه وبين ربه ، والحج لتحقيق التجرد من جميع العلائق الدنيوية ، والالتجاء الى الله خالصا من جميع الاعتبارات والتعلقات ، فان الصيام قد شرع لتصفية النفس من كدور المادة ، وتنقيتها من أدرانها ، بالإقلال من تناولها إلا ما يقيم الحياة ، والإخفاف من أعبائها إلا ما لا محيص عنه لاتقاء الأعراض . فأين تكون أنت من هذا إذا قلبتَ حقيقته فجعلته وسيلة للإكثار مما يتعين الإقلال منه ، وذريعة للوقوع فى شرور التخم والوخم التى تبعدك عن التمتع بصحة نفسك ، بَلْهَ الزلفى من ربك ؟

ولا يجوز أن نغفل هنا القول أن لعدم التملؤ من الطعام فائدة روحية لها أكبر تأثير فى أخلاق الانسان وتعديل مزاجه ، لا يمكن الحصول عليها بوسيلة أخرى من وسائل الترويض والتربية .

ذلك : أن المعدة إذا لم يلق إليها إلا القدر الضرورى لحفظ الحياة ، قويت على هضمه بوسائلها الذاتية ، دون أن تضطر شطرا كبيرا من القوى العصبية للبدن أن يعينها على التخلص منه ، فتتفرغ هذه القوى لأداء مهامها الفكرية والعقلية والشعورية ، فيحصل صاحبها بسبب هذا التفرغ على ثمراتها الأدبية ؛ فيفتح له التفكير مجالات للنظر والتأمل ، ويجنى العقل من هذه المجالات ما يزيد به مادته العلمية ، ويستفيد الشعور الانسانى من هذه الأعمال ما يرفع به مستوى أدبه النفسى ، واتزانه الخلقى . وما جعلت كل هذه القوى عبثا ، ولكن لتعمل فيه ، ويتأدى هو تحت تأثيرها الى درجات متتابعة من السمو الفكرى والعقلى والأدبى . ولولا هذه القوى وفعلها فيه فى خلال العصور لما ارتقى الانسان عما كان عليه قيد أنملة .

الآن يمكنك أن تقدر ما يجنيه الإنسان على نفسه وعلى بنى نوعه بتعطيله القوى العصبية عن العمل فيه ، بسبب صرفها الى هضم ما يلقيه فى معدته من المواد الغذائية التى تزيد عن حاجته .

إن انصراف هذه القوى الثمينة فى الهضم ، يضيع على الانسان عملها الأدبى ، ويتركه تحت تأثير غرائزه الحيوانية ، فيعيش كما تمليه عليه من الميول التى لا تتفق وسموه الروحى ، ولا تلتئم وكيانه العلوى ، وتحرمه من الذخر الخلقى الذى يغالب به الحوادث ويتغلب عليها ، ويصبر به على العوادى الطبيعية لا حتى تنجلى فحسب ، ولكن حتى يستفيد من كلكلها عليه دروسا يدفع بها أمثالها عن نفسه وبنى نوعه ؛ ويتأمل تحت ضوئها فى كل ما يحيط به ليزيد به مادة علمه ، وعدد وسائله .

أما المحروم من نعمة هذه القوى فييأس من كل بادرةِ فشل ، ويضجر من كل سانحة خيبة ، ويضيق ذرعا بأصغر الحوادث ، ويشعر بالخور أمام أقل عقبة تلوح له ، ويحس بالإعياء إزاء أدنى عمل عقلى فلا يهم بمحاولته ، وهذه الحالات تضطره للتسلح بما يناسبها من الصخب والجلب ،

وقد تتضيق المنادح أمام عينه فلا يفرج عنه إلا مشادة أول محتك به ، وإبلاغ النزاع الى غاياته القصوى ، حتى اذا استنفد بقية قواه العصبية ، سكن جيَشان صدره وهمد أونام ، واستيقظ متأهبا لتمثيل أدوار أخرى !

فى هذه الحالة لا يكون لصاحبنا نصيب من الحياة الانسانية ، وقد لا يُرزق بمن ينبهه الى أن ما به ناشئ من ضعف قواه العصبية المعدلة لمزاجه ، وأقوى أسباب إضعاف هذه القوى التملؤ من الطعام بدون انقطاع .

فهل تستطيع أن تتخيل أن لهذه الحالة علاجا خيرا من الصيام ؟

وهناك أمر آخر أعظم شأنا من كل هذا ، وهو حرمان الانسان بواسطة التملؤ الغذائى من التعرض للنفحات الإلهية ، والإلهامات العلوية ، فاذا كان الانسان بهذا التملؤ يكتسب من الرعونات الخلقية ما يكاد يخرجه عن دائرة الانسانية ، فكيف يرَجى أن يتصل بالملأ الأعلى وهو على هذه الحالة ، وتلك حضرة لا يقبل فيها إلا ذوو الهمم النزاعة الى الكمال ، والقلوب التواقة الى عالم الجلال ، ممن أدركوا أن الحياة إذا لم تكن غايتها هذه الرتبة العلية ، كانت عبئا ثقيلا على صاحبها ، تنتهى كما بدأت فى آلام وتباريح ليس لها حد تقف عنده : « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك ، أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

وهل يتأتى لمن وصفنا حالتهم أن يذكروا آيات الله ويعملوا بها ، أو أن يؤمنوا بها ولا يسرفوا على أنفسهم ؟

لتدارك الانسان من الوقوع فى هذه الحالة السيئة من الحياة البهيمية ، شرع الله الصيام ، فالصيام رياضة نفسية ، يتمكن بها الانسان أن يستولى على زمام ميوله الجسدانية ، فيعدل من تطرفها ، ويقمع من تعسفها ، ويوجهها الى وجهة الصلاح ، فيحيا حياة طيبة ، ويعرُج بما يكتسبه فيها من القوى الروحية الى عالم القدس ، فيتعلق منه بسبب يرفعه من عالم الحيوانية ، وهو لا يرفعه اليه حتى يصل به الى أبعد غايات الانسانية .

لبلوغ هذا الشأو البعيد ، شُرع الصيام ، لا ليكون سببا فى التوسع فى المآكل ، فتقتصر حكمته على أن يشعر الانسان بألم الجوع بضع ساعات .

إن ما ذكرناه من الحكم البالغة للصيام قد أدركه الكملة من رجال هذا الدين ، فاتخذوه وسيلة للاتصال بالملأ الأعلى ، فحصلوا من السعادات الروحية ، وهم أحياء ، ما لا يدور فى خلد المترفين الذين استعبدوا أنفسهم للملاذ ، فجنت على عقولهم وأجسادهم شر الجنايات ؟

محمد فريد وجدى

نظرات فى الادب العربى

جاهليه و إسلاميه

— ٧ —

مناهج الشعراء

درج الشعراء القدامى ، على أن يستوحى الشاعر خياله ، ويترسم خواطره الخاصة ، فيما يقرضه من الشعر ، فلا ينظر الى شعر غيره ، ولا يترسم خطاه ، إلا حين يريد معارضته ، ومساماته ؛ كما فعل كثير منهم فى مختلف عصور الأدب ؛ وإذا أخـذ شاعر عن شاعر ، فانما يأخـذ معنى سبق اليه الأول ، فى البيت ونحوه ، أو بعض الألفاظ والتراكيب ، كما هو متعارف معلوم .

ولـكن شعراء العصر الحاضر ، قد استحدثوا نوعا غير المعارضة ، واستخدموه باسراف فيما قرضوا من الشعر ؛ وهو أن يعمِد الشاعر — إذا أراد أن ينظم قصيـدة فى غرض من الأغراض — الى ديوان أحد الشعراء المتقدمين ، فيتخير قصيدة من قصائده ، يتخذها إمامه فى نظم قصيدته ، ويتهـدّى بمعانيها وألفاظها الى ما يريد من المعانى ، ويفيد من قافيتها ومن أسلوبها إفادة تختلف قوة وضعفا ، وخفاء ووضوحا ، على حسب قوة المتأخر وضعفه . وقد نبه النقاد المعاصرون على ما وقع لـكثير من شعراء العصر الحاضر من هذا النوع ، بما تعرفه جمهرة الأدباء ، مما زخرت به المؤلفات الحديثة ، وتناولته الصحف والمجلات بالشرح والتفصيل .

وشوقى — على جلالة قدره — قـد سار فى هـذا الطريق غير مرة ، وأكثر قصائده التى نسجها على هذا المنوال ، عرض له جمهرة من كبار النقاد ، وردوه الى مراجعه ، واتخذوه فى أكثر الأحيـان سبيلا الى الموازنة بين الشاعرين ، وخرجـوا من ذلك الى مدح الشاعر ، أو لومه ، كل على حسب ما تملى عليه صلاته به ، وعواطفه نحوه .

ومن القصائد التى لم يتعرض لهـا ناقد — فيما أعـلم — قصيدته فى رثاء المغفور له شيخ الشعراء : إسماعيل صبرى باشا ، التى جاء فى مطلعها :

أجلٌ — وإن طـال الزمان — مُوافى ... أخـــلى يديك من الخليـل الوافى

داع الى حـــقّ ، أهابَ بخاشع ... لَبِسَ النّذيرَ على هـدى وعفاف

فقد تهدّى فيها بقصيدة حكيم الشعراء أبى العلاء المعرى ، التى رثى بها الشريف أبا أحمد الموسوى الملقب بالطاهر ، وعزّى ولديه : الرضىّ ، والمرتضى أبا القاسم ؛ والتى جاء فى مطلعها :

أوْدَى — فليت الحادثات كَفَافِ   مالُ المُسِيفِ وعَنبَرُ المُسْتَاف
الطاهر الآباء ، والأبناء ، والـ   أثواب ، والآراب ، والألّاف

وأذكر أننى كنت ممن شهد حفل الأربعين لشيخ الشعراء ، وأُعْجِبَ بروعة قصيدة أمير الشعراء ، التى ساعد على تجلّيها إلْقاء العالم الشاعر الجليل : على الجارم بك ؛ إعجابا حمانى على أن أردّ على المرحوم الشاعر الكاتب يوسف يكن بك ، نقدَه لها فى مقال نشرته له المقطم ونشرت الرد عليه ؛ واستشهدتُ على قوة القصيدة بأبيات ، منها قوله :

فُجِعَتْ رُبَا الوادى بواحد أيكِهَا   وتجرعتْ ثُكْلَ الغدير الصافى
فَقَدَتْ بَنَانا كالربيع مجيدة   وَشْيَ الرياض ، وصَنْعَةَ الأفوافِ
إنْ فاته نسبُ « الرضىّ » فربّما   جَرَيَا لِغَايةِ سُؤْدُدٍ وطِرَاف
أوْ كان دُونَ أبى الرضىّ أبوّة   فلقد أعاد بيان عبد مناف
شرفُ العصاميين صُنْعُ نفوسهم   من ذا يقيس بهم بنى الأشراف ؟ !
قل للمشير الى أبيه وجدّه :   أعلمت للقمرين من أسلاف ؟
لو أنّ « عِمْرانا » نِجَارُك لم تَسُدْ   حتى يشار إليك فى الأعراف

ولم يخطر ببالى ، ولا مر بخاطر من قرأ كلمتى من الأدباء وأثنى بالخير ، أو فند ما فيها ولم يرضه ، آنئذ ، قصيدةُ المعرّى ، وكانت بقعة خصبة الردّ علىّ ؛ حتى عثرت فى بعض دراساتى لسقط الزند على هذه القصيدة ، فرأيت فيها — إلى جانب الوزن ، والقافية ، والرضىّ ، وكثير من ألفاظها وقوافيها — قوله :

أنتم ذوو النَّسبِ القصير ، فَطولُكم   بادٍ على الكبراء والأشراف
والراح إن قيل: ابْنَةُ العنب ، اكتفت   بأبٍ عن الأسماء والأوصاف
ويُخَالُ موسى جَدُّكم — لجلاله   فى النفس — صاحبَ سورة الأعراف

فعرفت أن أمير الشعراء رحمه الله ، ليس أبا عذر هذا المعنى ، كما كنت أعتقد ، وإنما أخذه من الحكيم ، ثم تصرف فيه هذا التصرف الذى لا يخلو من براعة ، وفضل حيلة ، تكفلان له ما تبوأته شاعريته الفذة ، من مقام كريم . فالمعرى يتكلم فى موسى بن جعفر الصادق وهو أبو على الرِّضَا ، ومعنى بيته الأخير : يُخالُ جدُّكم موسى — لشرف ذاته ، وفضائل نفسه — مثل موسى النبى عليه السلام ، المذكور فى سورة الأعراف ، فى قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » الى سائر الآيات فيها . وشوقى - بعد أن أغنى المرثىّ عن شرف النسب القصير الذى أحرزه الرضى ، وفاته ، بشرف العصامية ، وأيد دعواه بقوله : أعلمت للقمرين من أسلاف — نقل الكلام عن موسى جد الممدوح ، الى موسى (ابن عمران) وعنى أنّ موسى الرسول لم يحرز الكرامة ببنوّته لعمران ، وإنما أحرزها

باصطفاء الله له بالرسالة ؛ ولا أكذبُ الله ، أنني لم أفهم صلة هـذا البيت على وضعه هـذا ، بما سبقه من الأبيات ، إلا على وجه يشيع الضعف فى مطاويه ؛ فلقـد تعلّمنا فى الأزهر أنّ الرسالة وَهْبية لا كسبية ، فليست من صنع نفس موسى ، ولا يستحق بها شرف العصاميين ؛ وعندى أن أمير الشعراء كان فى غنى ، أىّ غنى ، عن هـذا البيت ، لو لم يطغ هوى تقليده للمعرى ، على وحيه الشعرى ؛ وإنما أتكلم على قدر عقلى ، وفوق كل ذى علم عليم .

***

قال أمير الشعراء :

ذهبَ الذبيح السمح مثلَ سَمِيِّه ... طُهْرَ المُكَفَّن ، طيب الألفاف

كم بات يذبح صدرَه لشَكاته ... أتراه يحسبها من الأضياف ؟ (١)

الى أن قال :

أخنت على الفلك المُدار ، فلم يدُر ... وعلى العُباب فقَرّ فى الرَّجّاف

نظر فى البيت الثانى الى قول المعرى :

إن زاره الموتى كساهم فى البِلَى ... أكفان أبلج مكرم الأضياف

وطَوَى فى البيت الثالث ما بسط الحكيمُ فى قوله :

رَغتِ الرُّعود ، وتلك هدَّة واجبٍ ... جبَلٌ هوَى من آل عبد مناف

بخلت ، فلمّا كان ليلةَ فَقْدِهِ ... سَمَحَ الغمامُ بدمعه الذرّاف

ويقال إنّ البحر غاض ، وإنها ... ستعود سِيْفا لُجة الرَّجّاف (٢)

وقال الأمير :

يا راكبَ الحدْباءِ ، خلِّ زمامَها ... ليس السبيل على الدليل بخاف

دانَ المطىَّ الناسُ ، غيرَ مطية ... للحقّ ، لا عجْلى ، ولا مِيجَاف

لا فى الجياد ، ولا النياق ، وإنما ... خلقت بغير حوافر وخفاف

تنتاب بالركبان منزلةَ الهدى ... وتَؤُمُّ دار الحق والإنصاف

قد بلّغتْ ربَّ المدائن ، وانتهت ... حيثُ انتهيتَ بصاحب الأحقاف

---

(١) مات المرحوم بعلة الذباح ، ويقال له : الذبحة بكسر الذال وضمها مع فتح الباء والحاء ، وهى وجع الحلق كأنه يذبح . (لسان العرب) . ومنه تعرف أنه لو استبدل بصدره : حلقه ، لكان أشبه بالصواب .

(٢) توفى المرثى فى ليلة كانت السماء ترعد فيها (رعدت السماء ترعـد بفتح العين وضمها رعدا ورعودا ، وأرعدت : صوتت للامطار) ولا يخفى بدع رغاء الرعود هنا . والسيف بالكسر : شاطئ البحر ، واللجة معظم ماء البحر ، والرجاف من نعوت البحر ، والضمير فى أنها للشان والقصة ، والواجب الساقط والهالك .

ولا ريب أنّ مِفتاح هذه الأبيات ، هو قول الحكيم :

هَلاّ استعاض من السرير جوادَه ... وَثَّابَ كل قرارة ونِيَاف
هيهات ! صادَمَ المنايا عسكرا ... لا ينثنى بالكرّ والإيجاف

هذا ، ومن روائع قصيدة المعرّى قوله :

تكبيرتان حِيَال قبرك للفتى ... محسوبتان بعمرة وطواف

ومن الشواهد الأزهرية قوله :

والطير أغربة عليه بأسرها : ... فُتْخُ السَّرَاةِ وساكناتُ لَصاف (١)

ومن روائع الشوقية ، قوله :

ما أنت يا دنيا ، أرؤيا نائم ... أم ليل عرس ، أم بساط سلاف ؟!
نعماؤك الريحان ، إلا أنه ... مست حواشيه نَقِيعَ زُعاف
ما زلت أصحب فيك خلقا ثابتا ... حتى ظفرتُ بخُلْقك المتنافى

وقوله :

لا يوم للأقوام حتى ينهضوا ... بقوادم من أمسهم وخواف

وأما بعد ، فقد كان من الدروس التى ألقيتها على الفرقة النهائيـة فى كلية اللغة العربية ، هذا العام : الموازنة بين قصيدة الحصرى : يا ليل الصب متى غده ، وقصيدة أمير الشعراء فى معارضتها ، وراعنى ما شهدته من ثورة الطلبة ووجومهم ، عندما آنسوا منى الميل الى ترجيح كِفة الحصرى ، نزولا منهم على أثر العواطف الخاصة ، وتمردا على حكم النظر العلمى ، وكانت صدمة من خيبة الأمل فى اتساع صدورهم للنقد ، وانتفاعهم بما علموا ، فهرتنى على أن أطيل القول ، وأشتد فى النصيحة ، وأعيد ما كنت أظنهم فى غير حاجة الى إعادته ، من أن الكمال لله وحده ، وأنه لا يقدح فى عظمة شوقى ، أن يتتابه الضعف حينا ، على حين أنه يتسنم قمة الإجادة أحيانا ، وأن عواطفى نحو شوقى ، أرسخ وأقوى ، على أضعف حاليه عندى ؛ الى غير ذلك من وجوه الإقناع ؛ فلعلى غير محتاج فى موقفى مع القراء الكرام اليوم ، الى مثل ما احتجت اليه فى موقفى مع طلبتى أمس . ولم يزر بزهير بن أبى سلمى ، والنابغة الذبيانى ما قاله النقاد القدامى من أنهما كانا ينظران فى أشعارهما الى شعر أستاذهما : أوس بن حجر ، حتى كانوا يقولون :

---

١ ــ السراة بالمهملة المفتوحة : جبال فى أرض اليمن ، ولصاف كحذام : جبل طيئ ، وفتخ ، جمع فتخاء العقبان التى تكسر جناحها فى الطيران ، والمعنى أن كل الطيور فى الحزن على المرثى ، مثل الأغربة ، وإن لم تلبس حدادا ، ولم تقل شعرا . وقد نسب الى شاعر الغربان رثاء الفقيد بقصيدة على روى القاف ، فى أبيات بديعة قبل هذا البيت .

إن زهـيرا كان يتوكأ فى شعره ، على شعر أوس . وذكر ابن قتيبة أبياتا لأوس ، استغلها زهير والنابغة لفظا ومعنى ، أو معنى فقط ، منها قوله :

لعمرك أنا والأحاليف هؤلا   لفى حِقْبة أظفارها لم تقلم

أخذه زهير ، فقال :

لدى أسد شاكى السلاح مقذّف   له لبد أظفاره لم تقلم

وأخذه النابغة ، فقال :

وبنو قُعَيْن لا محالة أنهم   آتوك غير مقلمى الأظفار

ولا يخامرنى ريب فى أن الأفضل للشاعر ، أن ينزع فى نظمه ، عن وحى خياله ، ويستغنى بفيض خواطره الخاصة ، وشعوره المستقل ، عن النظر الى أشعار الأقدمين ؛ ولعل هذه قضية يقلّ فيها الخلاف ؟

كلية اللغة العربية   **عبد الجواد رمضان**

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

من ثمرات الورع

روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يدفعون عن أنفسهم أربعة أشياء : الامامة ، والوديعة ، والوصية ، والفتوى .

كان الصحابة يهربون من تولى هـذه الأشياء الأربعة ، ومن العجب أنها صارت مطمح الأنظار بعدهم ، ذلك لأن الصحابة طلبوا الدين لذاته ، وغيرهم طلبوا الدين للاستعلاء على الناس بسلطانه . وأعجب من هذا أن الناس يرون هذا الرأى ، ويعرفون المتزاحمين على هذه الخطط بسيماهم ، فيغضون عن ذلتهم هذه ، ويتغابون عنها ، ويمضون فى معاملتهم على ما توجبه وظائفهم ، فيزدادون مضيا فى تـكالبهم ، ويضطر الناشئون لتقليدهم ، للوصول الى أغراضهم ، على طريقة أسلافهم ، ما دام الوازع معدوما ، وما دام الناس يشجعونهم عليه .

هـذا أثر من آثار تراخى عرى التـكافل بين أفراد الجماعة ، وهو نذير شؤم على المجموع لا على طائفة منحرفة من طوائفها . قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » . فى هـذه الآية زجر شديد عن التغابى عن انحراف الطوائف والأفراد فى المجتمع الواحد . وما دامت الحياة المشتركة تقتضى التـكافل فـلا محل للاغضاء عن الزلات بعد ما ثبت أن عقوباتهم تعم الجماعة ، ولا تخص الجناة .

في عالم الأدب العربي (١)

الشعوبية وأثرها في الأدب العربي

— ٨ —

وإذا كان الخلفاء العباسيون قد قدروا الفرس حق قدرهم ، وأنزلوهم من أنفسهم أسمى المنازل ، وعرفوا لهم تلك اليد العظيمة فى إقامة دولتهم ، فلم ينسوا عربيتهم ، لذلك تراهم لم يترددوا فى القضاء على مثيرى الفتنة ضدهم ولو كانوا من أحب الناس لديهم وأقربهم إليهم ؛ فهذا هو أبو مسلم الخراسانى الذى تعهّد الدولة العباسية فى منبتها ، وتولاها بحذقه وبراعته حتى قوى منها العود ، وأينع الثمر ، وآتت أطيب الأكل ، فان كل ذلك لم يشفع له أمام تنكيل المنصور به والقضاء عليه حينما استشعر منه روح الكبرياء والمناوأة ! وهؤلاء هم البرامكة الذين شغلوا مكانا من قلب الرشيد غير يسير ، فقد أتى على بنيانهم من القواعد ، ومزّق شملهم شر ممزّق لما جاوزوا الحدود ، وخرجوا على المألوف ؛ ومثل هذا ما فعله المأمون بالفضل ابن سهل ! وما أقدمهم على هذا العمل إلا شعورهم بتساوى المسلمين فى الحقوق والواجبات مهما كانت أجناسهم .

ومما يدل على أن الفرس كانوا يكبرون العروبة ، أن كثيرا منهم كانوا ينتحلون لأنفسهم نسبا عربيا ؛ فهذا أبو مسلم الخراسانى انتحل لنفسه نسبا عربيا ، فزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ! ويحكى صاحب الأغانى أن إسحاق الموصلى تناظر مع ابن جامع بحضرة الرشيد ، فسبه ابن جامع ، فمضى إسحاق الى خازم بن خزيمة العربى فتولاه وانتمى إليه ، فقبل ذلك منه ، فقال إسحاق :

إذا كانت الأحرار أصلى ومنصبى ودافع ضيمى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعدا غير قائم

فذلك يدل على أن من الفرس من كان يتطلب الشرف من طريق الانتساب الى العرب .

يروى الأغانى : أنه كان لعلى بن الخليل صديق فارسى ، فغاب مدة وقد أصاب مالا ورفعة ، ثم عاد الى الكوفة وادعى أنه من تميم ، فقال يهجوه :

يروح بنسبة المولى ويصبح يدعى العربا
فلا هذا ولا هذا ك يدركه إذا طلبا

ويحكى الأغاني أيضا أن والبة بن الحباب كان يدعى النسب الى العرب ، فقال فيه أبو العتاهية :

أوالب أنت فى العـرب كمثل الشيص فى الرطب
هـلم الى الموالى الصيـــــد فى سعة وفى رحب
فأنت بنا لعمـر اللّـــــه أشبه منـك بالعـرب

وهـذا كله لا يحول بيننا وبين أن نقول : إن الشعوبية قد بلغت أقصى غاياتها فى القرن الثالث الهجرى ، لما قدمنا من أن شعور الفرس بأنهم أقاموا الدولة ، وشعور العباسيين بأنهم مدينون للفرس ، قد مهّد لمن يبغضون العرب أن يلصقوا بهم ما شاءت لهم أهواؤهم ونزعاتهم من ذم وقدح ، كما أنه أتاح لمتعصبي العرب أن يردوا هـذا القدح بمثله أو بأقذع منه .

هذا ولا نحب أن يفهم القارئ أن كل الفرس وكل العرب كانوا على غرار واحد ، يبغض بعضهم بعضا ، فالحق أن الـكثرة الساحقة فى الأمتين كانوا متشبعين بروح الاسلام من عدم الاعتداد بالجنسية ، فإن طرأ ذكر الجنسية عرضا عرف الفرس للعرب فضلهم ومكانتهم وأسبقيتهم فى الاسلام ، واعترف العرب للفرس بحضارتهم العريقة وثقافتهم القديمة اللتين أفادتا العـرب كثيرا ، وخطت بهم خطوات واسعة نحو الرقى والـكمال .

فهذا هو عبد الله بن المقفع الفارسى يمتدح العـرب ويطريهم ، ويجاهر بأنهم أعقل الأمم وأجدرها بالبقاء .

فقد روى أبو العيناء الهاشمى عن الفخذمى عن شبيب بن شبة قال : « كنا وقوفا بالمِربَد ـ موضع بالبصرة كان مألف الأشراف ـ إذ أقبل ابن المقفع فبشبشنا به وبدأناه بالسلام ، فرد علينا السلام ، ثم قال : لو ملتم الى نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعوّدتم أبدانـكم تمهيـد الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ؛ فان الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله من شىء تنالوه ؛ فقبلنا وملنا ؛ فلما استقربنا المـكان قال لنا : أى الأمم أعقل ؟ فنظر بعضنا الى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس ، فقلنا : فارس ؛ فقال : ليسوا بذلك ، إنهم ملـكوا كثيرا من الأرض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر ، فما استنبطوا شيئا بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم ؛ قلنا : فالروم ؛ قال : أصحاب صنعة ؛ قلنا : فالصين ، قال أصحاب طرفة ؛ قلنا : فالهند ، قال : أصحاب فلسفـة ، قلنا : السودان ، قال : شر خلق الله ، قلنا : الترك ، قال : كلاب مختلسة ؛ قلنا : الخزر ، قال : بقر سائمة ، قلنا : فقـل ؛ قال : العرب ؛ قال : فضحكنا ؛ قال : أما أنى ما أردت موافقتكم ولـكن إذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة ؛ إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم » .

على أنك لا تـكاد تعثر فى العصر العباسى على قرين لابن المقفع يلف لفه ، ويشايعه فى [illegible]

من امتداح العرب وتنقيص الفرس أصله ومنبته، سوى ابن قتيبة ؛ بل الذى لا تلقى عناء فى وجدانه أن طغمة من الأعاجم فى العصر العباسى أخذوا ينقّصون العرب ، ويهجّنون محامدهم التى بها يفخرون ويعتزون ، ومنهم من ألّف كتبا فى مناقب العجم ، واخترعوا القصص العديدة التى تطوح بكل شىء يعتز به العرب .

وقد تصدى للرد على هـذه المثالب الجاحظ فى بيانه وتبيينه ؛ وألف ابن قتيبة كتاب (العرب) رد فيه على من وضع شأن العرب ، وذكر ما اختصت به العرب من الفضائل .

هذا ، ولم يكن وكر الشعوبية بلاد الشرق فحسب ، بل تعدتها الى بلاد الأندلس فى الغرب .

فهذا هو أبو عامر بن غرسية ، فقـد أنشأ رسالة يفضل فيها العجم على العرب ، فرد عليه كثير من فقهاء الأندلس وأدبائها ، وقد نقل هذه الردود صاحب كتاب « ألف باء » .

وقبل أن نختم هذا البحث لا بد لنا أن نشير الى أمرين ، أما أولهما : فان الشعوبية كغيرها من النزعات كانت من العـوامل التى أخصبت ، ناحية من الأدب العربى ؛ وذلك ما قصدنا إليه وحده دون أن نعرض لها من الوجهة العلمية إلا نزرا يسيرا استدعاه ذلك القصد .

وأما ثانيهما : فانه لا بد لنا أن نقف موقف الحاكم المنصف بين الخصمين ، فنقول : إن الأمثلة التى سردناها نثرها ونظمها لا تخلو عن هوى فى النفس من الطرفين ، وإن كلا منهما كان مسرفا مغاليا فيما يلصقه بخصمه من شين ونقص ، مما جعل التاريخ يعيد نفسه فيعرض على الأذهان صورة من صور الجاهلية الممعنة فى الفرقة والاختلاف ، المسرفة فى الهجو والسباب .

ولئن كان للجاهليين عذرهم فما عذر هؤلاء وقد جاء الاسلام معفّيا على كل هذا ، داعيا الى الوحـدة والاعتصام بحبله المتين ، ناظرا الى الشعوب على سـواء ، جاعلا مناط الرفعة والـكرامة تقوى الله وطاعته ؛ فالناس بذلك يتفاوتون ، وعلى أساسه يعاملون ؟

احمد ابراهيم موسى
تخصص البلاغة والأدب

لا غنى عن الناس

سمع عمر أمير المؤمنين رجـلا يقول : اللهم أغننى عن الناس . فقال له الفاروق : أراك تسأل الموت . قل : اللهم أغننى عن شرار الناس . وقال رجل لابن عباس : ادع الله أن يغنينى عن الناس . فقال له ابن عباس : إن حوائج الناس متصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء ، فمتى يستغنى المرء عن بعض جوارحه ؟! ولـكن قل : أغننى عن شرار الناس .

إن فى هذين القولين لحـكمة ، فما أكثر الذين يعتدون فى الدعاء !

كلمات في الأخلاق

الصداقة حاجة اجتماعية

فى رأى ابن المقفع

الإنسان فى الحياة المادية زميل الإنسان ومعاونه ، وعشيره ومؤانسه ؛ ومهما بلغ الإنسان من الرخاء والسعة والاعتداد بالنفس فهو فى حاجة ملحّة الى من يبادله الرأى ، ويكشف له عن نوازعه ، ويفضى إليه بذات نفسه . تلك غريزة كامنة فى الطبيعة الإنسانية . وقديما قالوا : الانسان مدنى بالطبع ، أى أن به ميلا الى التآلف والتعاطف ، وحاجة الى التعارف والتفاهم ؛ وعلى هذا قامت شتى الروابط فى المجتمع الإنسانى ، وكانت الضرورة الداعية لاتخاذ الأودّاء والخلصاء ، واصطفاء الأصدقاء والأخلاء .

ولبلغاء العرب وحكمائهم فى الصداقة والصديق أقوال كثيرة ، ولكنها نتف مبعثرة تقع موقع الحكمة ، وتجرى مجرى المثل ، وقد يظهر فيها التضارب ، وربما بلغت فى الأداء غاية الإيجاز والرمز ؛ ولعل ابن المقفع هو أول من اهتم بهذه الناحية الخلقية فأفرد لها فى التدوين ، ونظمها فى باب تمكن مذاكراته والوقوف عليه ، فى كتابى الأدب الصغير والأدب الكبير .

لقد كانت محنة أخلاقية هزّت كيان المجتمع الاسلامى فى عهد ابن المقفع ، وهو سقوط أسرة مالكة وقيام أخرى ، وكان هو فى صميم هذه المحنة يرى الشر يكشف له عن ناجذيه فى كل خطوة ، والبطش يتهدده فى كل فرصة ؛ ولقد حاول جاهداً ان يعيش على الحذر والمسالمة لعله يسلم ، ولكن هيهات ! فقد طاحت به الوقيعة فى النهاية ؛ فلا غرو إذا ما رأينا الرجل يحفل كثيراً بالدعاية للأخلاق الكريمة ، فينشد إصلاحها ، ويعظ الناس فى الأخذ بأسبابها ؛ ولا غرو إذا ما رأيناه يبالغ كثيرا فى الحث على اختيار الصديق ، والتمسك بما تقتضيه معاملة الأصدقاء من الخلال الشريفة : كالوفاء والإيثار ، والبذل والمسامحة ، والحفظ والرعاية ، وما الى ذلك من الصفات التى هى جماع الأخلاق الطيبة .

وما كل ما كتبه ابن المقفع فى الصداقة والصديق من ابتداعه ، ولا هو من فيض تجربته واختراعه ، ولكنه تلقف كثيرا من حكمة الهند ، وآداب الفرس ، وتجربة العرب ، وصنع من كل ذلك سمطاً منتظماً لو تدبرته لرأيته المثل الأعلى فى بابه . وفى تقدمته للأدب الصغير يقول : « وقد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون على عمارة

القلوب وصقالها وتجلية أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق ، إن شاء الله » .

ولعلك تعرف أن الرجل كان من الكتاب المثاليين ، أى أنه كان يصور الأمور على ما يجب أن تكون لا كما هى كائنة ؛ ولقد كان يذهب فى الصداقة ومعاملة الأصدقاء مذهباً مثاليا يسمو على طاقة البشر ، ويرهق طبيعة الانسان المتقلبة ؛ ومن هذه الناحية تهجم بعض الباحثين على ابن المقفع ، وقال : إنه يفرض فروضاً لا يمكن أن تحتملها طبيعة الإنسان ، وإنه ليذهب فى كلامه إلى الخيال أكثر مما يقصد إلى الحقيقة . وليس هذا على ما أرى بعاب ولا نقص ، فان الرجل كان يشفع القول بالعمل ، ويؤيد الرأى بالتنفيذ . لقد كان ابن المقفع يقول : « ابذل لصديقك دمك ومالك » ، وأنت قد تقول : ولكن أين هو الانسان الذى يبلغ فى الصداقة إلى حد البذل والإيثار ؟ وأين هو الرجل الذى تدفعه رجولته فينسى من أجل صاحبه روحه وماله ؟ وأنا أقول لك : لا تعجب فقد كان ابن المقفع نفسه هو ذلك الرجل ، وما كان الكاتب الكبير فى رعاية الصداقة إلا آية الوفاء وحجة الفداء . ولقد روى فى سيرته أن كان جالساً مع صديقه وختنه عبد الحميد الكاتب ، فدخل عليهما الجند يطلبون عبد الحميد للاقتصاص منه عند الخليفة ، فقالوا : أيكم عبد الحميد ؟ فقال ابن المقفع : أنا ، وقال عبد الحميد : بل أنا ، وهمّ الجند بأخذ ابن المقفع فى صاحبه لولا أن أسرع عبد الحميد فقال : تمهلوا وتدبروا فان لكل منّا سمات تميزه ، وأنا من سماتى كذا وكذا مما تعرفونه ، فأخذوه ! ولولا ذلك لذهب ابن المقفع فداء صاحبه وهو قرير العين ! !

فالرجل كما ترى كان إماماً فى الأخذ برأيه ، وما كان من الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، وليست الصداقة عنده بالأوصاف والأقوال البليغة يهوّل بها على الناس ، على أنها لا تقع موقعاً من نفسه ، ولكنها تضحية بالروح والمال ، وخلق كريم يخدم فيه القلب واليد واللسان ، ولذا فهو يحذر من آفة القول مع ترك العمل فيقول : « وليعرفك إخوانك — والعامة إن استطعت — أنك إلى أن تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل ، فان فضل الفعل على القول زينة ، وفضل القول على الفعل عار وهجنة ، وإن إحكام هذه الخلة من غرائب الخلال » (١) .

وابن المقفع يبتدئ فيقسم الناس الى أربعة أقسام : الأصدقاء ، والمعارف ، والعامة ، والأعداء ؛ ثم يقرر لكل منهم حقه فى المعاملة والسلوك فيقول : « ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك وإنصافك ، واضنن على كل أحد بدينك وعرضك » (٢) .

(١) الادب الكبير ص ٧١ . (٢) الادب الكبير ص ٦٢ .

« واعلم أن من عدوك من يعمل فى هلاكك ، ومنهم من يعمل فى صلاحك ، ومنهم من يعمل فى البعد منك ، فاعرفهم على منازلهم ، (١) وإن كنت مكافئا بالعداوة فإياك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية ، وعداوة الخاصة بعداوة العامة ، فان ذلك هو الظلم والاعتداء ؛ واعلم مع ذلك أنه ليس كل العداوة والضرر يكافأ بمثله ، كالخيانة لا تكافأ بالخيانة ، والسرقة لا تكافأ بالسرقة (٢) » .

« والبس للناس لباسين ليس للعاقل بد منهما ، ولا عيش ولا مروءة إلا بهما : لباس انقباض وانحجاز من الناس ، تلبسه للعامة ، فلا يلفونك إلا متحفظا متشددا متحرزا مستعدا ؛ ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة الثقات من أصدقائك ، فتلقاهم بذات صدرك ، وتفضى إليهم بمصون حديثك ، وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم ؛ وأهل هذه الطبقة ـ الذين هم أهلها ـ قليل من قليل حقا ، لأن ذا الرأى لا يدخل أحدا من نفسه هـذا المدخل إلا بعد الاختبار والتكشف والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد (٣) » .

محمد فهمى عبد اللطيف

(١) الادب الكبير ص ٩٥ . (٢) الادب الكبير ص ٩١ . (٣) الادب الكبير ص ٧٧ ، ٧٨ .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

فضيلة الصبر

قال الله تعالى : « والعصر ، إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة .

وقال الحسن البصرى : وجدت الدنيا والآخرة فى صبر ساعة .

وقد أجاد أبو الفتح البستى فى قوله :

ولم أر مثل الشكر جنة فارس ... ولم أر مثل الصبر جُنة لابس

وقال غيره :

وليس الفتى من خوّر الخطبُ صبرَه ... ولكنه من خار فى صبره الخطبُ

نقول : لا يصح أن يفهم من هـذا أن الانسان يجب عليه متى ابتلى بكارثة أن يصبر لها جامدا حتى تزول ، ولكن أن يعمل لإزالتها فى صبر وثبات حتى لا يعزب عنه رأيه بالهلع .

وقد أمر الله بالصبر فى القتال ، فهل يتوهمن أحد بعد هذا أن الصبر استسلام وجمود ؟

كلمات قصيرة :

الدعوة الى الاسلام

منذ أيام غير طويلة ، طالعت فى إحدى الصحف مقالا لكاتب اجتماعى ، يتهم فيه علماء الدين ، والقائمين بالدعوة إليه خاصة ، بأنهم يشجعون الناس على ما هو أشبه بما يسمى « بالفوضى الدينية » ، إذ يرحبون بكل راغب فى « الاسلام » مهما كان تفكيره واعتقاده ، وعلمه وإدراكه ، غير مبالين بغرضه من هذه الرغبة ، مع أن كثيرا منهم قد لا يكون له قصد سوى الارتزاق من هذا المال الذى منّاه به « الواعظون » ، أو الصدقات التى قد ينفحه بها المثرون ، من فضل ثرائهم ؛ وأنه ربما كان فيهم مع ذلك من يريد بدينه « الجديد » أن يخلص من زوجته التى لم يجد فى نصرانيته ، أو يهوديته ، ما يساعده على أن يطلقها ، أو يفارقها بالمعروف ! ! ثم أهاب بالمشرعين فى نهاية المطاف أن يضعوا حدا لهذه المسألة . . .

والذى يقرأ هذه الكلمة ، لا يشك فى أنها تنطوى فى جملتها على شيء من التجنى على رجال الدين ، والقائمين بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة . . .

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يحرص كل الحرص على « هداية الناس » حتى لا تكون فتنة (١) ويكون الدين كله لله . وكان يبالغ فى هذا الحرص ، الى أن ينال من راحته ونومه ، ولم يخفف من هذا الكد المتواصل ، إلا بعد أن زاده الله علما فى ذلك بأمثال قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ، وقوله تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء ! » . وكان حقا على أصحابه ، أن يكونوا على قدمه مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة . وحضهم على الدعوة للاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، حتى أنه قال : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها » .

ولكنه لم يقصد بهذه الهداية أن يقود المسلم غيره للدين قيادة عمياء ، خالية من الدراية والنظر ، ولكنها هداية النور والعلم ، فى هوادة وتثبت . وليس أدل على ذلك من قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه . . » فانها قد رسمت دستورا للدعوة الى الله ، لا تصل إليه أمة بلغت من الحضارة والمدنية ، ونضوج العقل ، ودقة التفكير ، شأوا عاليا ، ودرجة سامقة ، إذ تضمنت النجدة وإغاثة الملهوف ، وإيواء المستجير ، ودفع الخوف عنه ، وزادت عليه الدعوة الى الله من طريق التروى والتعقل ، فى جو من الأمن والطمأنينة ، ليكون إيمانه صادرا عن تثبت واستدلال .

---

(١) معنى الفتنة هنا الوثنية .

وكل نبي من الأنبياء يفاخر بأتباعه يوم القيامة ، ثم يكون أشد هؤلاء مفاخرة ، وأكثرهم مباهاة ، نبينا ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ لا لكثرة سواد ، وزيادة عدد فحسب ، ولكن لأن فيهم العلماء الذين نشروا اللواء بعده ، وذادوا عن حياض هذا الدين ، ودعوا إليه بالتي هي أحسن .

وتجد القرآن الكريم ، يعنى بالنظر والتفكير ، والتدبر والمعرفة ، والتأمل فى مصنوعات الله ، ويقدم ذلك كله على ما سواه : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ؟ » ، « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا » ، « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ؟ » ، « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض . . » ولعل فى هذه الآيات وأمثالها ، ما يدلنا على عناية هذا الدين بالفكرة والمبدأ ، أكثر من عنايته بالأرقام والأعداد ، فهو يريد أن يكون فكرة فى النفوس ، وعقيدة فى القلوب ، حتى يكون الله ورسوله أحب مما سواهما وكفى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

على أن هؤلاء الذين يقصدهم حضرة الكاتب ، ممن يطيرون وراء المنفعة ، ويسيرون فى أعقاب الأغراض ، ممن يؤمنون وجه النهار ، ويكفرون آخره ، لا يقيم الدين لهم وزنا ، وهم أشبه عنده بالمنافقين الذين كانوا يؤمنون ، ليأخذوا من أسلاب الحرب ، وغنائم القتال « فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذاهم يسخطون . . »

ولكن هل يستطيع المكلفون بقبول من يطلبون الدخول فى الاسلام أن يطلعوا على ضمائرهم ، ليقفوا على خبيئة نفوسهم ، ويرفضوا طلب المحتالين منهم ؟ ذلك ما لا سبيل إليه . وفيم هذا التشديد كله فى بيئة انتشر فيها دعاة يغرون الناس بالمال لقبول دعوتهم ، ويعدونهم بضروب المساعدات والرعايات ؟ فإذا لم يكن إزاء هذه الحركة النشطة شيء من التسامح فى قبول طالبي الدخول فى الاسلام ، اعتبر ذلك منا صداً عن الدين ، وأحجم الكثيرون عن الإقبال عليه تحاميا من التشهير . على أنه لو أحصى عدد الذين يسلمون لأغراض مادية لما بلغوا عشر معشار الذين يطلبون الاسلام رغبة فيه .

وبعد : فهذه كلمة توجب التفكير على الذين يعالجون هذا الموضوع دون تعمق فيه ، فإن الكلام فى انتشار الأديان والدعوة إليها شئون اجتماعية يصحبها ظواهر نفسية لا يحسن إعارتها نظرات سطحية ، والبت فيها دون إطالة الروية ، وإنعام النظر البعيد .

ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

من اخلاق الشريعة وآدابها

أسلفنا للقراء شطرا من الكلام عن آداب الشريعة وأخلاقها ، وكيف أنها تحكم المجتمع بأمثل الطرائق وأنبل الأنماط والمناهج ، وتخلع على هذا الوجود ناموسا كان وما يزال مردا للخير ومثابة للطمأنينة والأمن والهداية ، وكيف أنها تواصت بين أطوائها بالمبادئ العامة لقوانين البشر بل لقوانين الوجود كله فى أمر معاشه ومعاده فى أدق صوره وأبلغ مراميه .

فهى توصى بالرحمة لخلق الله جميعا ، وتفيض فى تلك الرحمة إفاضة دونها كل إفاضة ، ذلك لأن الرحمة بين الناس بل بين الكائنات ، المظهر الأول لبقاء هذا المجتمع قائما يؤدى كل جزء من أجزائه رسالة الى الجزء الآخر بأمانة وحزم وإخلاص .

فيروى الشيخان فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فيقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » . وأخرج الترمذى فى صحيحه عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى السماء » . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة يقول : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » . وجاء شيخ كبير يريد النبى صلى الله عليه وسلم فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لا يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » . روى هذه الثلاثة أبو داود والترمذى . ويروى الترمذى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر » . وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » . ويروى الشيخان فى صحيحيهما عن النعمان ابن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ويروى أبو داود رضى الله عنه فى صحيحه فى باب المزاح نوعا من الأخلاق المثالية تدل على مبلغ عناية الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بالأمن والطمأنينة تعمر القلب وتملأ النفس بهجة وتثبيتاً حتى فى المزاح الذى قد يند عن طرائق الحياة الجدية أحيانا بما ينساق إليه بعض الفطر والطبائع صادرا عن حسن طوية وسلامة نحيزة ؛ فيروى أبو داود فى هذا الصدد فيقول :

« وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر معه ، فأخذ بعضهم من أخيه حبلا وهو نائم فاستيقظ ففزع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يروّع مسلما » .

ومثل هـذه القصة فى المزاح قصة أخرى يرويها أبو داود فى صحيحه ، فقـد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فانطلقت لحاجتى فرأيت حمرة (نوع من العصافير) معها فرخان ، فأخذت فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش (تصيح حزنا على فرخيها) ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من فجع هذه بولدها ؟! ردوا ولدها إليها » !

ومثل هـذه القصص قصة أخرى هى أمثولة عالية للخلق الكريم ، وآية رائعـة للقلب الرحيم ، فهى بعد حفز للأقوياء على الرحمة بالضعفاء ، بما ادخر الله لهم من مثوبة ، وما كتب لهم من باقيات صالحات . فقـد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يمشى بطريق ، اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : نعم فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

فبينا تلك الشريعة السمحة تفيض أيما إفاضة فى تواصى الناس بالرحمة الشاملة إبقاء على ذلك الرباط الوثيق أن تنحل عراه وأن ينهار مبناه ، إذا بها توصى بعد ذلك بالبر بالفقير والحـدب عليـه والتوجع له إذا نزل به مـكروب أو حلت بساحته فاقة ، ويشمل ذلك اليتيم والأرملة والجار الضعيف ، فن ذلك ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى فى شأن الرحمة باليتيم والمثوبة عليها . فقد روى هؤلاء الأربعة عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى » .

والشأن فى الأرملة التى لا زوج لها شأن هؤلاء فى بذل الرحمة والمعـونة ، والرفق بها ، والعطف عليها ، فقد حكى العلامة ابن رشد أن الأرملة إذا كان فيها نوع من الجمال يرغب فيها الأزواج ويحببهم إليها ، ثم عفت نفسها عنهم وحبست ذاتها على يتاماها ، كان لها أجر الصابرين . وذلك بدهى الظهـور لأن انشغالها بأطفالها وسهرها على راحتهم مع تغير حال واشتغال بال وكثرة بلبال مما يضاعف لها فى ذلك الأجر .

هذا وأسرار الشريعة الاسلامية لا تحصى . وسنحاول قدر الجهد أن نضع بين يدى القراء من هذا النوع ما يتيسر لنا على التتابع . فإلى الغد القريب ؟

عباس طه

معرض الآراء العامية
فى الإسلام والمسلمين

حالة المرأة العربية فى الحريم

للأوربيين ولوع بالكتابة عن المرأة الاسلامية ، وكثيرا ما شطت أقلامهم طلبا للإغراب ، واستنزال عجب القراء ، فأتوا بما يشبه ما دُوّن فى حكايات ألف ليلة وليلة . وهم إذا كتبوا عن المرأة العربية حيث الحجاب الكثيف ، والعزلة التامة عن الرجال ، جاءوا بما لا يوجد إلا فى عالم الخيال . وقد انتشرت هذه الكتابات منذ قرون ، وزادها الكتاب المحدثون توكيدا ، فأصبحت هذه الخيالات حقائق يتعذر إزالتها من الأذهان . فإذا اتفق لأحدنا وقابل أوروبيا أقبل من بلاده حديثا ، وجده دهشا مما يجد من التناقض بين الصورة الذهنية التى علقها عن الشرق والشرقيين ، وبين ما عليه حالهم فى الواقع ، ولكن الذين يزورون الشرق عدد قليل ، وأكثرهم من التجار والمستعمرين ، وهؤلاء لا تأثير لهم على الرأى العام فى بلادهم لأنهم لا يكتبون ؛ ومن يجىء الى بلادنا من كتابهم تشوقهم الآثار والعاديات ، أكثر ما تشوقهم الأخلاق والعادات ، فلا يعيرونها إلا نظرات سطحية . وبذلك بقى الشرق الاسلامى معتبرا دار عذاب للمرأة تعانى فيه الويل والثبور .

وقد وقفنا على مقال نشر فى جريدة (جورنال دو جنيف) السويسرية، تحت العنوان المتقدم، آنسنا فيه اعتدالا ، فرأينا أن نعربه لقراء هذه المجلة ليعلموا بعض مايقال عنهم ، وسنلاحظ على ما يقتضى الملاحظة منه .

قال :

« المرأة العربية فى الطبقة الثرية ليست بتعسة الحظ فى حريمها ، فهى لا تتألم من التشدد فى حبسها ، وإن شدة حبها للاطلاع على كل ما يمس عاداتنا وأزيائنا النسوية لا يقابل منها رغبة فى التحرر والخلاص مما هى فيه . فهى كطفلة جاهلة كل الجهل ، طيبة القلب عطوف ، لا تدرى مما هو خارج حملها سوى أسرتها شيئا ، وكل معلوماتها تنحصر فى دائرة حليها ومسائل الحمل والإجهاض ، وهى تشعر بضجر لا تستطيع تحديده ، ولا تعرف كنهه .

« يندر أن يكون للعربى الثرى من أهالى شمال أفريقا أكثر من زوجتين ، ويكثر



أن لا يكون له غير زوجة واحدة ، تكون سيرته معها عادية ، أعنى ليست على أسلوب الوحشية الظالمة البهيمية التى تخيلها قصاصون ليسوا على شىء من العادات العربية البيتية . وقد اعتاد العربى أن لا يفضى بشىء عما يجرى فى داخل داره . ويرى أنه لا يصح أن يُسأل عن أحوال امرأته . فهذا الأمر لا يجوز الإلمام به إلا إذا رأى هو أن يتكلم فيه . فإذا اتفق أن امرأته محتضرة ، فلا يذكر ذلك لأحد ، محتفظا باتزانه العادى ، وبأسلوبه الكلامى المشبع بالغاية القصوى من الأدب . وهذا التحفظ منه فى هذا الموطن عادةٌ يجرى عليها ، ولا يدل على عدم التأثر مما هو بسبيله . وللنساء العربيات ككل نساء العالم أزواج يختلفون فى صفاتهم الطيبة والرديئة .

« أما حالة هؤلاء النسوة فتلوح لهن عادية لا شية فيها . أما اللاتى يتألمن منها فهن اللائى يردن أن يذقن لذة الحرية التى لا تصلح لها بيئتهن ، ولا يصلحن هن لها ، والعربيات وإن كن على جانب عظيم من الذكاء ، فان نفوسهن قد ألفت العادات التى نشأن عليها ، وإن كانت تربيتهن الحديثة قد جعلتهن كالمنحطات عن مكاناتهن . وقد عرفتُ شابتين عربيتين كلتاهما حاصلة على الدكتوراه فى علم الحقوق ، دخلتا الحريم بالزواج بعد عودتهما من جامعة باريس عن طيب نفس ، ولم تخرجا منه . وليس هذا بالأمر النادر .

« فعلى المرأة الأوربية التى يسعفها الحظ بأن تقبل فى الحريمات ، باعتبار أنها صديقة لأهلها ، أن ترى من الواجب عليها أن لا تحاول جذب أخواتها العربيات الى قبول فكرة التحرير . فهذه قد تكون غلطة بسيكولوجية واجتماعية . ولكن يجب عليها أن تعتبر صواحباتها المسلمات الجميلات اللاتى يشبهن ملكات بيزانطة ، مخالفات لها فى الشعور . فيجب أن تعاشرهن ، وأن تحترم أسلوب حياتهن ، دون أن تسعى فى بذر بذور الآراء التى لم تستعد عقولهن لقبولها .

« أما أعظم ما يمكن أن يعمل لهن فهو العناية بأمر صحتهن ، وإشراك الأزواج فى هذه العناية . ذلك لأنهن مصابات بفقر الدم بسبب معيشتهن فى الظل ، ولأن دورهن الفخمة تجاور فناء قذرا مملوءا بالفضلات ، تقيم فيه خادمات قذرات ، وأطفال مصابون بالقمل . وليس لهذه السيدات حديقة يمكن أن يستنشقن فيها الهواء بعيدين عن الأنظار . فإذا أصبن بمرض تولت علاجهن العجائز ، وهن اللاتى يقمن بصناعة التطبيب فى القبيلة ، ويعشن محترمات مبجلات ، وليس لعلاجهن أساس علمى ، بل هو مستمد من فنون الشعوذة . أما الطبيب من جنس الرجال فلا يقبل فى هذه الدور إلا نادرا ، ولا يلجأ أهل المريض أن يبعثوا به الى المستشفى إلا حين لا يرجى له شفاء .

« فالمرأة الأوروبية تستطيع أن تؤدى لهـذه الأسر خدمات جليـلة بالتوسط فى إدخال مبادئ العناية الصحية إليها ، ذلك أجدى عليها من بث الآراء الاجتماعية فيها .

« وقد اعتاد النساء المسلمات أن لا يقبلن الأخذ بالوسائط الصحية ، فيما يتصل بالأمراض النسوية ، إلا من نساء بشرط أن يكن متزوجات . ويمكن بواسطة العلاج بالحقن مكافحة أمراض كثيرة ، وآفات جمة ، مثل الزهرى الذى يفتك بعدد عظيم من الجنس العربى ويدنسه !

« فاذا برت الأوربية مرضى هذه الأسر بهذه الوسائل السهلة وبدون ألم ، فوجئت بشكر عظيم من هـؤلاء النسوة ، وذكرن ذلك طوال حياتهن . وتجدهن لا يدخرن شيئا فى سبيل الإعراب عن سرورهن ليثبتن فرط شكرهن . فيأيتها الممرضات من الجنس الأبيض ، هل تنتظرن من مرضاكم المتمدنات مثل هذه الثمرة ؟ » (د . ج)

***

(مجلة الأزهر) : إن هذه المقالة على خلوصها من التجنى وتعمد التشهير ، لا تخلو من المبالغة والإغراب ، فان الادعاء بأن العربيات المحجبات كلهن مصابات بفقر الدم ، يشبه قول خصوم الحجاب هنا : إن جميع المحجبات مبتليات بهذا الداء ؛ والواقع يدل على خلاف هذا الاتهام . فان تلك النسوة إن كن محجبات فهن لسن بمحبوسات ، وكل من زار البلاد المغربية يعرف ذلك كل المعرفة . ولـكن كتاب الفرنجة يعادون الحجاب ولا يقصرون فى اتهامه بكل نقيصة ، ويقلدهم لدينا من يأخذون إخذهم ، ويزيدون عليهم فى مناوأته .

واليوم وقد أسفر النساء ، ونتج عن سفورهن ما نتج من الاستخفاف بالآداب ، والاغراق فى التبرج ، قلب أنصارهن بالأمس لهن ظهر المجن ، وأخذوا يشهرون بهن فى كل ناد ، حتى أخذوا يصيحون بوجوب إقامة شرطة للآداب !

كل هـذا ولما يمض على سفورهن غـير سنين معدودة ، فما ظنك حين يتغلغلن فيه ، ويرتـكب الطائشات منهن من ضروب الاستهتار فى التبرج ما لا قبـل للشعور الاجتماعى على قبوله ؟ عند ذاك يطرأ على الشرق داء جديد يدعونه تهتك النساء ، يضاف الى سائر علله ، وهو أشدها فتكا ، وأصعبها مراسا ، وأفعلها فى إفساد نفسية الجماعات ، وتفكيك عراها ، والإسراع بها الى الهلاك .

فإذا كان يتعذر اليوم إعادة الحجاب ، فهل يعز على السلطات المختصة أن تحد من التبرج الممقوت ، وأن تصد من ضروب التهتك المعيب ؟ هل تستطيع تلك الجهات أن تضع لتقصير الثياب وتضييقها حـدا ؟ هل يتسنى لها أن تمنع كشف الرأس والصدر والذراعين والساقين فى الطرقات ؟

إذا أمكن ذلك وأنا فى شك من إمكانه ، لاشتداد الفتنة وتحكمها ، فان ترك حبل الأمور على غواربها ، والاكتفاء بالشكوى منها ، لا تكون له نتجية غير تطور الداء الى حالات يستعصى معها على العلاج ، ولا يدرى إلا الله ما يؤدى إليه من الأزمات الخلقية والمعضلات الاجتماعية .

ويبالغ الأستاذ (د . ج) فى حكمه بأن الزهرى شائع بين العرب ، وهو يريد عرب بلاد المغرب . فما أصدق المثل العربى فى هذا الموطن وهو : رمتنى بدائها وانسلت !

إن هذا الداء لم يكن معروفا ببلاد الشرق قبل حلول الأجانب به ، فهم الذين جلبوه فيما جلبوه معهم من فوائد المدنية ومضارها ، حتى أنه قد نسب إليهم فسماه الناس بالداء الأفرنكى .

فاذا كان يكثر فى عرب المغرب كما يقول الكاتب ، ولم يقدم لنا دليلا على ما يقول ، فإن هذا الداء قد يجىء من طريق العدوى ، ولا يشترط أن يكون المصاب قد التاث به من الوقوع فى الاثم المسبب له . فقد يشرب الانسان من كوب ماء فى مقهى يكون قد شرب منه قبله مصاب بالزهرى ، فاذا كان فى فم الشارب البرىء أو فى لسانه جرح ، تلقح بميكروب هذا المرض العضال ، فسرت ميكروباته فى دمه وأحدثت به الزهرى . وهذا المصاب الجديد يعدى أهله به ، وهؤلاء يعدون غيرهم من هذا الطريق ، فينتشر فيهم ، والجميع يتساوون فى الجهل به ، وفى الخجل من الاعتراف به لطبيب ، فيتطور لديهم ، ويبلغ أشد درجاته .

وقد فطن الانجليز لهذه الحالة النفسية لدى المصابين به ، فأسسوا مصحات تتعهد لمن يترددون عليها كتمان أمرهم ، وتعالجهم منه بحيث لا يشعر بهم أقرب الناس اليهم . كل ذلك تشجيعا للمصابين على المبادرة بالتخلص من هذا الداء الوبيل .

فلو فطن الشرقيون لتأسيس مثل هذه الدور ، خفت وطأة هذه الآفة الخبيثة التى لا تقتصر عواديها على الشخص وحده ، ولكن على ذريته أيضا الى يوم يبعثون .

أقول هذا وأنا موقن بأن خير علاج لهذه الاباحة إعادة سلطان العقائد الأولية الى النفوس ، فهى وحدها التى تتحكم فيها ، وتحد من سطوة الشهوات عليها . وفى العلم والفلسفة أسلحة ماضية لإثبات هذه العقائد ، لا تقوى عليها الشبهات الإلحادية . وهذا العلاج وإن كانت ثمرته بطيئة إلا أنها تكون دائمة ، ولا تترقب من القوة الوازعة ضعفا لنعود أقوى وأكلب مما كانت عليه ، كما حدث ذلك فى كل أدوار التاريخ ؟

محمد فريد وجدى

تاريخ الفن المصرى القديم :

هذا كتاب أصدرته دار الهلال على عادتها من طبع ملحقات سنوية فى موضوعات حيوية ، تحسن إدارتها انتخابها ، وتبدع فى تحليتها بالصور ، وفى إتقان طبعها . وقد وصلنا منها أخيرا سفر نفيس جم الفوائد فى فن العمارة . ومن يعرف أن المصريين القدماء قد بلغوا من هذا الفن أوجه الأعلى ، يدرك أن الكتاب الذى يبحث فيه يجب أن يكون ذا قيمة عالية ؛ ومن يستطيع أن يبلغ هذه الدرجة غير الرجال الذين وقفوا حياتهم على دراسة هذه الآثار القيمة لأول وأكبر مدنية قامت فى العالم ؟ لذلك وقع اختيار دار الهلال على واحد من أولئك الاخصائيين وهو الأستاذ القدير محرم كمال ، الأمين المساعد بالمتحف المصرى ، فعهدت إليه بوضع كتاب فى هذا الموضوع . فجاء سفرا فخما يقع فى مائتين وعشرين صفحة محلى بعشرات من صور التماثيل والهياكل ، لا يدع صغيرة ولا كبيرة مما تتوق النفس الى معرفته فى هذا الموضوع إلا أتى به فى أسهل وأبلغ عبارة . فنشكر لدار الهلال هذا الاختيار الموفق ، ونثنى على إحسان الأستاذ المؤلف فيما تصدى له ، ونرجوه المزيد .

بردة محفوظ :

البردة قصيدة مشهورة مدح بها الأستاذ البوصيرى من أهل القرن السابع الهجرى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فنسج على منواله شعراء كثيرون الى عصرنا هذا ، كان منهم المرحومان البارودى باشا ، وشوقى بك ، واليوم يقدم الى القراء الأستاذ الشاعر المطبوع احمد محفوظ بردة جديدة سيجد فيها القراء لذة الجديد ، فى عبارات منتحلة ، وألفاظ منتخبة ، وشاعرة موفقة . قدم لها معالى الدكتور هيكل باشا وزير المعارف فأحسن الثناء على ناظمها ، وإنا نشاركه هذا الثناء ، كافأ الله شاعرنا بما يستحقه فى هذه وتلك .

على هامش التاريخ المصرى القديم :

عرفنا حضرة صاحب السعادة عبد القادر حمزة باشا صاحب البلاغ محاميا مدرها ، وكاتبا سياسيا مبدعا ، وما كنا نعرفه مؤرخا محققا إلا حين حظينا بقراءة كتابة الممتع (على هامش التاريخ المصرى القديم) ، فقد فاجأنا به على غير انتظار ، فكانت مباغتة طريفة وقعت منا أحسن وقع ، حفزتنا الى الاكباب على قراءته ، وإذا به ثمرة يانعة لدراسات طويلة شاقة فى تاريخ مصر القديم ، بذل الباشا الأستاذ فيها سنين كثيرة ، شفعها برحلات الى مواطن الآثار فى صعيد مصر ، فكان أثر هذا الجهد المتواصل ظهور هذا العمل التاريخى الضخم .

إن سعادة الأستاذ وهو يكتب هذا السفر الجليل كان يتوخى فيه غرضين : أولهما العلم



لذاته ، وقد وفاه حقه الى حـد بعيد يجعـله فى مقدمة الدراسات الممحصة التى لا يحتاج معها مطالعه الى المزيد ؛ وثانيهما باعتبار أن التاريخ خير ما يبنى فى نفوس الناشئة الشعور بالعزة القومية ، وهى كما لا يخفى من أكبر العوامل فى بعث الهمم لإبلاغ المجتمع أرقى ما يمكن أن يصل إليه من الشرف والسؤدد . فقد قال سعادته :

« الآراء متفقة على أن التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب . فاذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة أخرى ، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محىٍ للشعور بالعزة القومية ، وأقوى ماقن للفضائل الوطنية والاجتماعية » .

ثم قال سعادته :

« إن الناشئ فى انجلترة أو فى فرنسا أو فى ألمانيا أو فى غيرها من البلاد الراقية ، ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه ، فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تـكون نفسه قد انطبعت بطابع ما فى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن ، وتتولد رغبة فى محاكاة أبطاله ، وينمو تبعا لذلك الشعور بالقومية ، وتتربى أو تقوى فضائل الإقدام ، وسمو النفس ، ومجالدة المخاطر ، والميل الى طيب الأحدوثة . ومن عجيب أمر التاريخ أنه يولد هذه الفضائل كلها ، سواء أكان تاريخ مجد وبسطة فى الغنى والسلطان ، أم كان تاريخ متاعب وآلام . وقد عرفت الأمم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القـومى أول عامل فى تربية الفضائل النفسية ، وإبراز صفات الرجولة . أما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشئ منا ينشأ وهو لا يرتسم فى ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، وإذا اتفق له أن عرف شيئا عنها فليس هـذا الشىء سوى صورة مشوهة تختلط فيها الخـرافات بالأخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصرى روحه ، ويتعذر عليه أن يتحدث الى النفوس حديثا يقومها ويربى الفضائل فيها » .

فى سبيل تحقيق هذين المقصدين الشريفين ، تصدى سعادة الأستاذ صاحب البلاغ لنشر مؤلفه الذى نحن بسبيل الـكلام عنه .

لقد جمع هذا الـكتاب جميع المغريات على القراءة والاطلاع : فهو مدبج بقلم عُرف منذ نحو ثلاثين سنة بالإبداع فى البيان ، ومبوب أحسن تبويب بحيث تتداعى فصوله تداعيا منطقيا ، ومحلى بعشرات من الصور واللوحات المتقـنة الصنع وبعضها بالألوان ، ومطبوع أتقن طبع فى مطبعة دار الـكتب المصرية على ورق غاية فى الجودة .

فنشكر لسعادة المؤلف هديته النفيسة ، راجين له حياة طيبة ، ومزيداً من التوفيق .



مناوشات غير خطيرة قبل المعركة الفاصلة ، وقعة الأحزاب

سرية أبى سلمة :

أهلت السنة الرابعة فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن طليحة وسلمة ابنى خويلد الأسديين ، يؤلبان قومهما لحربه ، فاستدعى رسول الله أحد أصحابه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وأمره أن يسير حتى يطأ أرض بنى أسد بن خزيمة ويغير عليهم ، وأمر أن تسير معه كتيبة ، فسار فى المحرم حتى بلغ جبلا لهؤلاء القوم يقال له قطن ، فشن عليهم الغارة فهربوا من بيوتهم ، واستاق أبو سلمة ما صادفه من إبل وغنم .

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سرية عاصم بن ثابت :

فى صفر من السنة الرابعة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من بنى عضل والقارة ، وهما قبيلتان من بنى الهون ، وطلبوا إليه أن يرسل معهم من يفقه قومهم فى الدين ، فأرسل معهم ستة من أصحابه تحت إمرة عاصم بن ثابت . وكان هؤلاء الرجال غير صادقين فى دعواهم ، بل مأجورين لبنى لحيان الذين قتل المسلمون منهم أحد رجالهم ، سفيان بن خالد ، فأرادوا أن يرزءوا المسلمين بقتل رجال منهم أخذا بالثأر .

فلما بلغت السرية الرجيع ، وهى ماء بين مكة والمدينة ، أحسوا بالغدر ، وخرج نحو مائتين من بنى هذيل فى طلبهم ، فاضطر رجال السرية للجوء الى جبل هناك والاستعداد للمقاومة . فطلب إليهم بنو هذيل أن ينزلوا ولهم الأمان ، فاغتر بعهدهم ثلاثة رجال ، فلما صاروا فى أيديهم قتلوا أحدهم لمقاومته لهم بعد أن شعر منهم بالغدر ، وباعوا الاثنين بمكة لمن يريد أن يثأر لقتلاه من أهل مكة ، وهنالك قتلا .

سرية بئر معونة :

فى صفر من السنة الرابعة وفد على النبى صلى الله عليه وسلم أبو عامر بن مالك من صناديد

بنى عامر ، وكان يدعى لبطولته ملاعب الأسنة ، فدعاه رسول الله للاسلام ، فلم يذعن ولكنه لم يبعد . وقال للنبي : إنى أرى أمرك هذا حسنا ، فلو بعثت معى رجالا الى أهل نجد فانى أتوقع أن يستجيبوا لهم .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إنى أخشى عليهم أهل نجد .

فقال ملاعب الأسنة : أنا لهم جار .

فأرسل رسول الله لهم المنذر بن عمرو فى سبعين من أصحابه اشتهروا بالاكثار من حفظ القرآن حتى أطلق الناس عليهم لقب القراء ، فساروا جميعا حتى نزلوا بئر معونة ، ومنها بعثوا أحدهم ، حرام بن ملحان ، بكتاب الى عامر بن الطفيل سيد بنى عامر . فلما وصل إليه لم يلتفت الى الكتاب ، ولكنه ثار على مقدمه وقتله ، ثم استثار قومه على بقية إخوانه ، فلم يقبل بنو عامر أن يخفروا ذمة ملاعب الأسنة ، فاستصرخ عامر بن الطفيل عليهم بنى رعل وذكوان وعصية ، وهى قبائل من بنى سليم ، فأجابوه وذهبوا معه حتى التقوا بأصحاب رسول الله فقاتلوهم قتالا عنيفا حتى أتوا عليهم جميعا إلا رجلين ، أحدهما كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم فنجا ، وعمرو بن أمية وكان على سرح للقوم ، أى مع حيوانات سائمة لهم ، فخلص من القتل .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أمر هذه المجزرة الشنيعة حزن حزنا شديدا .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

غزوة بنى النضير :

بنو النضير يهود كبنى قينقاع الذين قلبوا ظهر المجن المسلمين فاضطروهم للجلاء عن حصونهم والهجرة الى الشام . وهؤلاء جروا على سنة سابقيهم فحدثتهم أنفسهم أن يغتالوا النبي صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه بينما كان مع بعض صحابته فى ديار بنى النضير ، تآمر رجال منهم على إلقاء صخرة عليه من مكان عال ، رغما عما كان بينه وبين هؤلاء القوم من عهد عدم الاعتداء ، فلما تبين رسول الله قصدهم رجع الى المدينة وأرسل محمد بن مسلمة يكلفهم الجلاء عن بلاد العرب الى حيث يشاءون .

فتهيأ القوم للرحيل علما منهم أنهم لا يقوون على حرب المسلمين ، فارسل اليهم منافقو المدينة من يخبرهم بأنهم يساعدونهم لو وقع عليهم عدوان ، وأنهم وإياهم متكافلون فى الحياة ، وقد حكى القرآن الكريم ما قالوه فى قوله تعالى : « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء

جُدُر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين » .

ولكن بنى النضير اطمأنوا الى هذا الوعد ، وتلكأوا عن الجلاء ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتعبئة ، فلما اجتمع المدد المطلوب خرج بهم . فلما بلغ بنى النضير خبر خروجه دخلوا الى حصونهم وامتنعوا فيها ، منتظرين ما يقوم به المنافقون الذين غرروا بهم تحت إمرة زعيمهم عبد الله بن أبى ، فلم يمدوا اليهم يدا بمساعدة كما لم يفعل مع بنى قينقاع من قبلهم .

فطلبوا الى رسول الله أن يقوموا بما تعهدوا به من الجلاء ، آخذين معهم ما تحمله الإبل من الأموال إلا آلة الحرب . فقبل ما اقترحوه وخرجوا . فمنهم من نزلوا بخيبر ، ومنهم من هاجروا الى الشام ، وأسلم منهم اثنان .

غزوة ذات الرقاع :

بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن قبيلتين من قبائل نجد ، وهما بنو محارب وبنو ثعلبة ، تتهيآن لحربه . فجرد من صحابته سبعمائة مقاتل وخرج بهم لملاقاة عدوهم . وما زالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم ، فلم يجدوا بها رجالا . ذلك أنهم لما بلغهم قدوم جيش المسلمين لاذوا بقنن الجبال ، ثم تشجع بعضهم ونزلوا للقتال . فلما اقترب الجمعان اعتراهم الرعب وولوا الأدبار .

غزوة بدر التى أوعد بها أبو سفيان :

قلنا عند ما انتهينا من إيراد تفصيلات وقعة أُحد أن أبا سفيان واعد المسلمين اللقاء فى بدر من العام المقبل ، وقبل النبى صلى الله عليه وسلم تحديه . ولكن أبا سفيان لم يستطع أن يوفى بوعده ، وخشى أن يُتهم بالنكول فعمد الى الحيلة . فكان ما حاكه منها أنه استأجر رجلا يقال له نعيم بن مسعود الأشجعى ليأتى المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجنود الكثيرة ، ليكسر من حدة المسلمين ، وينال من قواهم النفسية . فلم يبالوا بأقوال نعيم ، وخرجوا ألفا وخمسمائة تحت قيادة النبى صلى الله عليه وسلم ، وما زالوا يسيرون حتى أتوا بدرا فلم يجدوا بها أحدا . لأن أبا سفيان بعد أن وصل بمن معه الى بدر وأرسل الرجل الذى استأجره للإرجاف ، ظن أن إرجافه سيفيد الفائدة المرجوة منه . فقال لقومه إن هذا عام مجدب ، ولا يصلح للقتال غير عام معشب ، هلموا للرجوع . وكان قد خرج بهم على هذه النية ليرى الناس أن قريشا وفت بتحديها وأن المسلمين هم الذين نكصوا على أعقابهم خوفا منهم .

أما المسلمون فلما قدموا بدرا أقاموا بها يتجرون فى سوقها الذى كان ينعقد مرة فى شعبان من كل سنة ، فأصابوا خيرا كثيرا ، وسجلوا على أعدائهم الخذلان .

وقد حكى الله هذه الحادثة فى الكتاب الكريم فقال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها (فى وقعة أحد) ، قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شىء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا ، يريد الله أن لا يجعل لهم حظا فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

غزوة دومة الجندل :

كانت هذه الغزوة فى ربيع الأول من العام الخامس للهجرة . وسببها أن النبى صلى الله عليه وسلم بلغه أن الأعراب اجتمعوا بدومة الجندل يقطعون الطريق على من مر بهم ، وأنهم يريدون الدنو من المدينة وكان بينهم وبينها خمس عشرة ليلة . فأمر رسول الله بتعبئة ألف مقاتل من جنوده وخرج بهم لفض جماعة أولئك المفسدين . فلما قرب منهم وبلغهم الخبر تفرقوا ، فاستاق المسلمون ما شيتهم ورعاءهم . وبث النبى صلى الله عليه وسلم كتائبه الى كل وجه فلم يجد منهم أحدا ، وكفى الله المؤمنين القتال .

غزوة بنى المصطلق :

بنو المصطلق بطن من خزاعة ، وتسمى هذه الغزوة غزوة المريسيع أيضا ، وهو ماء لتلك القبيلة .

سبب هذه الغزوة أنه بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق يحشد الجنود لمحاربته ، فاستعد للقائه وندب الناس للقتال ، فلباه عدد كبير ، وكان منهم جمهور غفير من المنافقين ، خرجوا طلبا للغنيمة . فلما نمى خبر قدوم النبي بجيشه الى ديار بنى المصطلق أدركهم الرعب حتى تخاذل رجال منهم وتركوا معسكرهم . ولما وصل جيش المسلمين اليه ترامى الفريقان بالنبل، ثم هجم المسلمون عليهم وقتلوا منهم عشرة وأسروا سائرهم حتى نساءهم وذريتهم ، واستولوا على ما شيتهم وكانت ألفى بعير وخمسة آلاف شاة .

وكان بين الأسرى برة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى أصحابه أن بنى المصطلق صاروا أصهارا لرسول الله ردوا ما أخذوه من أموالهم من الغنائم ، وأطلقوا الأسرى أيضا ، لأنهم رأوا أنه لا يصح أن يؤسر من يمت الى نبيهم بسبب . فقالت عائشة رضى الله عنها : « ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية » ، تريد برة بنت الحارث وقد غير النبي صلى الله عليه وسلم اسمها . وقيل إن جويرية هى التى طلبت الى النبي ليلة زفافها إليه أن يطلق سراح الأسرى من قومها ، فأطلقهم . فكان أثر هذه المكرمة عظيما فى بنى المصطلق الى حد أن حملهم على الاسلام على بكرة أبيهم .

نار فتنة ما شبت حتى خمدت :

شبت نار فتنة بين المهاجرين من أصحاب النبى وبين أهل المدينة ، فلولا حكمة الرسول ، ورسوخ الإيمان فى قلوب المسلمين ، لأدت الى انفصام وحدة المسلمين .

ذلك أن عبد الله بن أُبَىّ زعيم المنافقين شهد مع شيعته هذه الغزوة طمعا فى غنائمها . واتفق أن أجيرا لعمر بن الخطاب خاصم حليفا للخزرج ، فضرب أولهما الثانى وأسال دمه . فصاح الحليف (يا لَلخزرج) وصاح الأجير (يا لَلمهاجرين) ، فأقبل إليهما رجال من الفريقين كادوا يقتتلون ، لولا أن خرج إليهم رسول الله قائلا : ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبره بالأمر . فقال : دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة ، ثم حقق القضية فلم يجد للمضروب حقا ، فوقف الأمر عند هذا الحد .

ولكن شيخ المنافقين أراد أن لا تفوته هذه الفرصة . فكلم بنى الخزرج قائلا : « ما رأيت كاليوم مذلة ، أوَ قد فعلوها ، نافرونا فى ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمِّن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل . ثم التفت الى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم أيديكم ، لتحولوا الى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم ، حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده » .

فلما بلغ هذا الكلام النبي صلى الله عليه وسلم غضب وتغير وجهه ، فقال عمر : مرنى أو مر غيرى بقتله يا رسول الله ، فلم يقبل منه هذا الرأى ، وأمر جيشه بالعود الى المدينة ، وبينما هم ببعض الطريق نزلت سورة المنافقين وفيها القضاء عليهم ، وهى :

« إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون . وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ، ليُخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون . يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت ، فيقولَ رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » .

لا يجوز لنا أن نختتم هذه المقالة حتى ننبه القارئين الى العلو الخلقى ، والسمو الفكرى اللذين ظهر عليهما النبي صلى الله عليه وسلم حيال إرجاف شيخ المنافقين عبد الله بن أُبَىّ . فقد كان فى استطاعته قتله وقتل كل من يلف لفه من منافقى المدينة ، فقد كان الحاكم المطلق فى المدينة وضواحيها . وقد اضطر بعض المشركين ومنهم عبد الله بن أُبَىّ المذكور لإظهار الإسلام نفاقا ، والعمل سرا على حل جماعة المسلمين . ولو كان النبي قتل زعيم المنافقين لقال الناس إن محمدا استخدم القوة الغاشمة فى بث دعوته ، فلو تركها عرضة للنقد والتقدير لانحلت وبطل أمرها من قريب . فكان فى تركه وترك أمثاله ، ومقارعتهم بالحجج البينة ما يدفع هذه الشبهة عن الإسلام ، ويثبت بدليل محسوس أنه تأسس على الحقائق الثابتة ، وقام على قاعدة النظر والتمحيص ، وقد انتشر انتشارا لم يعهد له مثيل فى تاريخ العقلية الانسانية لهذا السبب نفسه .

محمد فريد وجدى

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى



سورة الشمس وضحاها

بسم الله الرحمن الرحيم

« والشَّمسِ وضُحاها ، والقمرِ إذا تَلاَها ، والنَّهارِ إذا جَلاَّها ، واللّيلِ إذا يَغْشَاها ، والسّماءِ وما بناها ، والأرضِ وما طحَاها » :

قدّم الشمس وما معها على السماء وما بناها ، لأن الغرض من ذلك أخذ النفوس بذكر تلك الآيات الى الله تعالى ، والاعتراف بقدرته وعظمته ، فهو من باب تقديم الدليل على المدلول ، والمقدمات على النتيجة . وكأنه سلك سبيل الترقى ، فكان ذلك كالطريق الى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات الى يفاع عالم الربوبية ، وبيداء كبرياء الصمدية .

وفى قوله : « وما بناها » إشارة الى حدوث السماء وكل ما فيها ، ومنها الشمس والقمر ، فإن كل ذلك لا يكون إلا بتقدير مقدر وتدبير مدبر .

هذا ، وعبر « بما » للإشارة الى الوصفية ، وأنها محل الاعتناء . وهم يفعلون ذلك إذا كان الوصف عجيبا يريدون لفت النظر اليه . وكأنه قيل : والقادر العظيم الشأن الذى بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤها . والمراد ببنائها إيجادها . وكذا الكلام فى قوله: « والأرض وما طحاها » أى بسطها .

هـذا وفى السماء آيات بينات ، وعجائب مدهشات . ويكفيك منها أنها واقفة فى الجو على ثقلها وعظمتها وكثرة ما فيها من أجرام لا عدد لها ، بغير ممسك يمسكها من فوقها ، ولا عمد ترفعها من تحتها . ومن البدهى أنه لا بد لها من مخصص يخصصها بحيز مخصوص وسمك مخصوص ، لا بد لذلك من مخصص قادر حكيم عليم .

فان قلت : إن الأشياء لها مقتضيات ولوازم بمقتضى طبعها وجبلتها على ما يقول الطبيعيون ، قلنا لك بعد تسليم هذا وعدم مناقشتهم فيه : من الذى طبعها على ذلك وأعطاها تلك الخصائص ؟ لا شك أن جعلها متفاوتة لكل منها طبع مخصوص ومقتضى مخصوص أدل دليل على المخصص والمرجح الذى خلق كل شىء ثم هداه وهدى اليه . أفلا يجوز فى العقل ألا توجد تلك العناصر التى أوصلوها الآن الى نحو الثمانين ؟ فمن الذى أوصلها الى ذلك الحد ومتعها بتلك الخصائص ؟

ولنعد الى الكلام فى السماء فنقول :

إن هذه الأجسام إنما وقفت فى الجو العالى بقدرة الله تعالى وعظيم تدبيره . وإياك أن تصغى لحديث الجاذبية الذى يتشدق به كثير من العصريين . فالجاذبية مطعون فيها كما يعرفه الاخصائيون ؛ وعلى فرض تسليمها فخَلْقُها فى الأشياء من أعجب الآيات وأكبر الدلالات ، لأن الممكن ليس له شىء من نفسه كما هو مقرر فى محله ، فلا بد أن يرجع الأمر أخيرا الى الله تعالى ، فهو رب الأرباب ، ومسبب الأسباب « إليه يرجع الأمر كله » . ولعله معلوم لك أن هذه الأجسام فى ذاتها قابلة للحركة والسكون ، فجعلها متحركة بحركة مخصوصة لا بد له من فاعل مختار ، فضلا عن تخصيصها بحيز مخصوص ، وانتقالها الى حيز مخصوص . وليس يخفى عليك بعد ذلك أن قطعها الفلك فى مدة مخصوصة ثم عودها لمثل ذلك طول الدهر ، من أعجب العجب الذى لا يمكن تعليله بسبب . وليت شعرى ما الذى أوجب أن تكون تلك الحركات بعضها مشرقية وبعضها مغربية ، وبعضها الى الشمال وبعضها الى الجنوب ، وبعضها سريع وبعضها بطىء !

وإجمال القول أنك إذا نظرت فى اختصاص كل شىء من هذه العوالم الفائتة الحصر بوضعه وموضعه ، وصفته وطبيعته ، وحليته ونعته ، وخصائصه ومقتضياته ، وجدته ليس إلا من الله تعالى ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

ثم انظر بعد ذلك فى الأرض لتعلم أن زيادتها ونقصها عما هى عليه أمر جائز ، وقبولها لأجزاء أخرى غير تلك الأجزاء التى فيها أمر جائز . أليس من الجائز ألا تكون فيها تلك العناصر التى تحتاج إليها العوالم من الغذاء والدواء ، وإنباتها لجميع الأشياء حتى الرجال والنساء بمقتضى ما أودع فيها الحكيم العليم والقادر العظيم ؟

ثم انظر بعد ذلك كيف جعلها من الشمس على مسافة مخصوصة حتى تنتفع المخلوقات بضوئها وحرارتها ، فلو كانت بعيدة جدا عن الشمس لما أمكن ذلك ، ولو كانت قريبة جدا من الشمس لم يعش عليها إنسان ولا حيوان . أليس كل ذلك من الآيات الباهرة ، والبراهين الظاهرة ، والنعم المتواترة ؟

وإن شئت فانظر الى الجبال التى جعلها الله أوتاد الأرض ، وفيها من المنافع ما لا يأتى عليه البيان . ولعله لا يغيب عنك ما فيها من المعادن والجواهر التى تفوق العد ، مما أفاد العالم أكبر فائدة . وانتفاعنا بالجبال فى نعمة المياه والأمطار غنى عن البيان . ولهذا يقرن الله ذكر الأنهار بالجبال فى كثير من الآيات كقوله : « رواسى شامخات ، وأسقيناكم ماء فراتا » .

وإن شئت بعد ذلك فانظر الى ما تنبته الأرض من النباتات التى لا تحصى عدا ، وفيها من المنافع والأسرار ما يدهش العقول ويملأ النفوس بعظمة الله تعالى ورحمته ومزيد إنعامه .

وليس يخفى عليك ما قال الله تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . ولعلنا لا نحتاج للتنبيه على أن بعض الشجرة يكون نَوْرا ، وبعضها ثمرا ، وبعضها ورقا ، وبعضها خشبا ، الى آخر ما يرشدك اليه الوجدان والبرهان . أليس ذلك كله برهانا ساطعا ودليلا قاطعا على تقدير العزيز العليم ؟ ومن أعجب العجب ما يقولون من أن بعض أنواع الورد يكون أحد وجهيه فى غاية الحمرة ، والثانى فى غاية السواد ، مع كون نسبته الى الشمس والهواء والماء والتربة واحدة .

ولننشد فى هذا المقام قول القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه ... وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشككون والايمان ملء قلوبهم ... ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ فى الجو يرسل طرفه ... إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله فى عرش مجده ... وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مرة ... إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الأنام كثيرة ... ولكن جهل المرء لا شك غالبه

أو نقول ما قال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع الى قلبه ويستمع من حديث لبه ، حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادكار ... وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات ... وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل ... مشرقات فى كل يوم تدار
وشموس مضيئة للبرايا ... فى نهار وفى الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج ... وبروق وراءها أمطار
إن شأن الإله شأن كبير ... جل ربا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على الله ... نفوسا لها هدى واعتبار

يوسف الدجوى
من جماعة كبار العلماء

السُّنَّة

ليلة النصف من شعبان

روى عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « دخل علىّ رسولُ الله فوضع عنه ثَوْبَيْه ثم لم يستتمّ أن قام فلبسهما ، فأخذتنى غَيْرة شديدة ، ظننت أنه يأتى بعضَ صُوَيحِبَاتى ، فخرجت أتبعه ، فأدركته بالبَقِيع ، بقِيع الغَرْقَد يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء ، فقلت : بأبى وأمى ، أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا ! فانصرفتُ فدخلتُ حجرتى ولى نَفَس عالٍ ، ولحقنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا النَفَس ياعائشة ؟ فقلت : بأبى وأمى أتيتنى فوضعتَ عنكَ ثوبيك ثم لم تستتمّ أن قمتَ فلبستهما ، فأخذتنى غَيْرةٌ شديدةٌ ظننت أنك تأتى بعضَ صُوَيحباتى حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع . فقال : ياعائشة : أكنت تخافين أن يَحِيفَ الله عليك ورسوله ؟ أتانى جبريل عليه السلام فقال : هذه ليلة النصف من شعبان ولله فيها عُتَقاءُ من النار بعدد شعور غنم بنى كلب ، لا ينظر الله فيها الى مشرك ، ولا الى مشاحن ، ولا الى قاطع رحم ، ولا الى مُسْبِل ، ولا الى عاق لوالديه ، ولا الى مُدْمِنِ خمر . قال : ثم وضع عنه ثوبيه فقال لى : ياعائشة تأذنين لى فى قيام هذه الليلة ؟ قلت : نعم بأبى وأمى ، فقام فسجد ليلا طويلا حتى ظننت أنه قد قبض ، فقمت ألتمسه ووضعت يدى على باطن قدميه ، فتحرك ، ففرحت ، وسمعته يقول فى سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سَخَطك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . فلما أصبح ذكرتهن له ، فقال : ياعائشة تعلّميهن ، فقلت : نعم . فقال : تعلميهن وعلميهن ، فإن جبريل عليه السلام علمنيهن وأمرنى أن أرددَهن فى السجود » . رواه البيهقى من طريق العلاء بن الحارث ، وقال هذا مرسل جيد ، لأن العلاء لم يسمع من عائشة . ذكره الحافظ المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان حكم إحياء ليلة النصف من شعبان وما ورد من ذلك . (٣) بيان حكم الدعاء الخاص المشهور بين الناس ليلة النصف من شعبان .

(١) أما معنى الحديث إجمالا فظاهر ؛ ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شغف السيدة عائشة رضى الله عنها برسول الله صلى الله عليه وسلم، وحرصها على أن يكون قريبا منها قربا تزداد به شرفا ورضوانا من الله عز وجل ، فلما رأته خرج من حجرتها أدركها ما يدرك النفوس البشرية من الغيرة على من تحب ؛ وكيف لا تغار على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى ترى وتلمس كل يوم من آيات النبوة ودلائلها ما قد لا يتيسر لغيرها من الصحب الكرام ؟ فحملتها هذه الغيرة الممدوحة على أن تخرج من حجرتها وتتبعه ، فوجدته ذاهبا الى الله ، وفى طاعة الله ؛ وجدته مهتما بالدعاء للشهداء والأموات الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات ؛ فلما رأته على هـذه الحالة وقارنت بين خواطر نفسها وبين عمله صلى الله عليه وسلم، خجلت من نفسها وقالت : « بأبى أنت وأمى، أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا ! » ورجعت متغيرة نادمة على ما حدثتها به نفسها ، الى آخر ما ذكر فى الحديث .

ولا ريب أن الحافظ المنذرى ثقة فى الرواية ، فلا يترك حديثا مطعونا فيه بدون أن ينبه على ذلك الطعن ، ويبين موقعه من القوة والضعف ؛ وهو لم يطعن فى رواية هذا الحديث ، كما لم يطعن فى رواية أحاديث أخرى وردت بمعناه . فما نقل عن أبى بكر بن العربى من أن الأحاديث التى وردت فى ليلة النصف من شعبان كلها موضوعة ، غير سديد ، ولا وجه له من جهة العقل ولا من جهة النقل .

أما الأول : فلأن الشريعة الإسلامية وإن كانت لا تقدس الأيام لذاتها كما لا تقدس الأمكنة كذلك ؛ ولكن قد يقع فى بعض الأيام والأمكنة ما يفضلها على غيرها ، فإذا أمرنا الله بأن نعظم مكانا خاصا كالكعبة ، أو أياما مخصوصة كأيام الأعياد والمواسم ، فانه يلزمنا أن نمتثل أمر الله ، ويكون تعظيم المكان أو اليوم هو تعظيما لله عز وجل بامتثال أمره .

نعم قد يقال : إن فى بعض ألفاظ الحـديث مبالغة لم يقع مثلها فى الأحاديث الصحيحة التى يرويها البخارى ومسلم مثلا ، وهـذه المبالغة هى أن الله يعتق من النار بعدد شعر غنم بنى كلب ، وهى قبيلة لها غنم كثيرة ، فاذا فرض وعتق من النار كل عام بعدد شعور غنم هذه القبيلة على التحقيق ، استغرق ذلك جميع المواليد فلم يبق أحد مستحقا للنار . ولكن الواقع أن العرب كانوا يعبرون عن الكثرة بمثل هذه العبارة فيقولون : عدد النجم ، أو عدد الرمال ، أو عدد الحصى ، ويريدون بذلك المبالغة فى الكثرة ؛ فالغرض من هذه العبارة ظاهر جلى .

وهناك إشكال آخر ، وهو أن الدين الاسلامى قد حكم فى هذه المسائل حكما واضحا ، وهو أن حقوق العباد لا تمحى إلا بردها الى أربابها ، أو بالعفـو عنها ؛ وحقوق الله تعالى تمحى بالتوبة والإقلاع عن تركها ؛ فمن يقترف خطيئة أو إثما مع الله أو مع عباد الله فليتحلل وليتب من ذنبه ؛ وقد استثنى الحديث المذكور بعض الكبائر المتعلقة بحقوق العباد ، كقاطع الرحم ،

والعاق لوالديه ، ومسبل الإزار خيلاء وتكبرا على عباد الله ، والمشاحن الذى لا ينفك عن إيذاء الناس فى معاملاته إياهم ؛ وذكر من الكبائر المتعلقة بحقوق الله الإدمان على شرب الخمر ، ولم يذكر قاتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والقتل هو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ، وكذلك لم يذكر الزانى بحليلة الغير ، ولا السارق ، وهما من الكبائر المجمع عليها ، الى غير ذلك من الكبائر والموبقات التى تقدم ذكرها فى مقام آخر .

والجواب عن ذلك أن الأحاديث الواردة فى النهى عن موبقة من الموبقات لا يلزم أن نذكرها جميعها ، فاذا كان الله سبحانه لا ينظر الى هؤلاء العصاة فى هذه الليلة فلا ينظر لغيرهم من باب أولى ، وتكون النتيجة أن الذين يعتقون من النار فى هذه الليلة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فالله سبحانه يزيد لهم العمل الصالح ، وييسره لهم ويحبب اليهم التوبة ، وبذلك يعتقهم من النار ، وإن كانوا من الأموات الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وماتوا ولم يتوبوا ، فان الله سبحانه قد يعفو عنهم إلا إذا كانوا متصفين بهذه الأوصاف التى نهى عنها الحديث . وبالجملة فان الغرض من هذا الحديث هو الترغيب فى الأعمال الصالحة ، والتوبة عن الموبقات فى هذه الليلة التى يغفر الله فيها للمؤمنين خطيئاتهم . هذا هو مجمل معناه ، وليس فيه شىء يستلزم إنكاره عقلا ، لأنه ترغيب فى الأعمال الصالحة الهامة ، وزجر عن الموبقات .

وأما من جهة النقل فلان الحافظ المنذرى مشهور بدقة الرواية ، ولم يترك حديثا فيه جهة من جهات الضعف إلا نبه عليها ، وكفى به حجة .

(٢) أما ما ورد فيه من إحياء ليلة النصف من شعبان بعبادة الله تعالى وطاعته فى جوف الليل ، فهو أمر مشروع فى ذاته لا نزاع فى مدحه ، وليس من البدع فى الدين أن يقوم المرء الليل ويقطعه بعبادة ربه والدعاء للأحياء والأموات من المؤمنين ، إنما الذى لا يجوز هو أن يحكم الانسان حكما شرعيا لا أصل له فى الدين ، فيقول مثلا : إن إحياء ليلة كذا بالعبادة فرض أو سنة مؤكدة ، أو صيام يوم كذا سنة أو واجب بدون أن يرتكز فى ذلك على سند صحيح من كتاب الله أو سنة رسوله ، أو تقليد مجتهد من المجتهدين المعروفين ، وهكذا .

نعم ورد أن الأئمة الأربعة كرهوا الاحتفال فى المساجد بهذه الليلة ، ولكن هذا شىء وما فعله النبى صلى الله عليه وسلم شىء آخر . قال فى إحياء العلوم : « وأما صلاة شعبان فليلة الخامس عشر منه يصلى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بعد فاتحة الكتاب قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد مائة مرة ؛ كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ، ويجتمعون فيها ، وربما صلوها جماعة ... الخ » . وقد قال شارحه الزبيدى : لم يصح شىء فى هذا الباب ،

وقد كره الحجازيون الاحتفال والاجتماع لإحياء هذه الليلة ، وأجاز ذلك بعض أئمة أهل الشام . فالأئمة الأربعة يكرهون مثل هذا الاحتفال كما يكرهون الدعاء الخاص اهـ .

ولا يخفى أن هذا كله غير ما نحن فيه ، وغير ما يدل عليه هذا الحديث ، لأن الحديث إنما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قام هذه الليلة يعبد الله ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، وهذا لا شك فى كونه مشروعا نافعا يقره العقل والدين . فالأحاديث الواردة فى هذا المقام صحيحة السند لا يصح إنكارها بدون دليل من العقل أو النقل ، ومن أنكرها كان مجازفا .

(٣) أما الدعاء المعروف بين الناس فلم يرد ذكره فى الأحاديث التى يعول عليها مطلقا ؛ نعم ذكره الألوسى فى تفسير قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » بصيغة قريبة من الصيغة المشهورة بين الناس ، ونسبه الى سيدنا عمر ، كما نسب صيغة أخرى لبعض الرواة . ولكن لم يبين لنا صحة السند وعدمها كما هو شأن المفسرين فى الغالب .

والحق الذى لا مرية فيه أن مثل هذه الاجتماعات فى المساجد ، وهذه الأدعية التى لم يرد لها أصل عند الأئمة الأربعة ولا عند أئمة المحدثين ، ينبغى اجتنابها ، لأن الله تعالى يكتفى من عباده المؤمنين بأى دعاء يدعون به ما دامت قلوبهم متجهة الى الله عز وجل ، مخلصة فى مناجاته ، وقد ورد فى السنة الصحيحة أن الدعاء لا يستجاب إذا كان صاحبه متلبسا بالحرام ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « يطيل الرجل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء يقول يا رب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وقد غذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » . فينبغى للداعين أن يلاحظوا ذلك عند دعائهم حتى يستجاب لهم .

وبالجملة فمن أراد أن يقلد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحياء هذه الليلة فليحيها بالعبادة وحده بدون اجتماع كما ورد فى الحديث الذى معنا .

وها هنا مبحث دقيق يذكر لمناسبة قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » فى هذا الدعاء : فان بعض المفسرين يظن أنها متعلقة بالقضاء والقدر ، وأنه فى هذه الليلة تكتب الآجال والأرزاق ، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بشئون العباد ؛ فالله تعالى يمحو ما أراده أزلا ويثبت غيره . ولكن يرد على هذا سؤال واضح ، وهو أن قضاء الله تعالى الذى انتهى إليه علمه لا يمكن أن يغير مطلقا ، وإلا انقلب العلم جهلا ، فانه إذا كان يعلم أن فلانا سيموت فى يوم كذا لا محالة ثم بدا له بعد ذلك أن يغير هذا الموعد ، لزم التغير فى علم الله ، وهو ما يسمونه بالبداء ، بمعنى أنه قد بدا له أمر صرفه عن إرادته الأولى ؛ وهذا ممنوع . نعم أجازه بعضهم مستدلا بأن أصحاب النبى المبشَّرين بالجنة وعلى رأسهم سيدنا عمر كانوا يخافون عذاب الله تعالى أشد من غيرهم ، حتى قال عمر : « لو نادى مناد : كل الناس

يدخلون الجنة إلا واحدا ، لظننت أنى ذلك الواحد » . فهذا يدل على أن القضاء يمكن تغييره .
ولكن ليس فى هذا وأمثاله شىء من الدلالة ، لأن سيدنا عمر وأمثاله من كبار الصحابة قدوة للناس ، فهم إنما يقولون ويفعلون ما فيه مصلحة المجتمع بصرف النظر عن شخصيتهم .

والحق الذى لا شبهة فيه أن هذه الآية الكريمة لا علاقة لها بهذا الموضوع رأسا ، بدليل ما قبلها ، لأن الله تعالى قال : « وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل الى الأمم كما أرسل سيدنا محمداً بشريعة تناسب كل زمان ومكان ، فلكل أجل كتاب معناه : لكل وقت حكم يكتب على العباد بحسب ما يلائم حالهم ، فإذا جاء رسول الى أمة من الأمم بشرع ، لا بد أن يراعى حالها وصلاحيتها لقبول هذا التشريع ، فيتدرج معها حسبما تطيق ، وذلك كان شأن الاسلام مع العرب فى كثير من الآيات والأحكام المتعلقة بالزواج والطلاق والميراث ، بل والعادات واللذات وهكذا ، حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم لما أرسل معاذا الى اليمن أمره بأن يطالبهم بالتوحيد فقط ، ثم بعد ذلك يأمرهم بالصلاة ، ثم بالصيام ، لأنه أشق ، ولا يطالبهم بالزكاة إلا بعد أن يستقر الإسلام فى أنفسهم ، فكذلك شأن العادات التى كانوا يقدسونها . وما قصة تحريم الخمر بخافية على أحد ، لأن العرب كانوا مولعين بشرابه فلم يحرمه الله عليهم من أول الأمر ، بل أخذ يرشدهم الى المضار التى تنشأ عنه ، ويلفتهم الى أن يقارنوا بين مضاره وبين ما يجدون فيه من لذة حتى يعلموا أنهم خاسرون بشرابه ، وبعد ذلك حرمه عليهم . فقوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت » معناه ينسخ من الأحكام المؤقتة ما لا يناسب تطور الأمة ، ويثبت ما يناسب ذلك التطور ، « وعنده أم الكتاب » : الأصل الذى يريد أن تستقر عليه حال الأمة .

وهذا التفسير هو الذى اختاره الإمام على كرم الله وجهه ، وهو الصواب فيما أعتقد .
وذلك لأن مسائل القضاء والقدر لا ينبغى أن تكون مرتبطة بأعمال الناس وشئونهم العامة والخاصة ، لأن الله تعالى خلق الأسباب والمسببات ، وربطها ببعضها ربطا محكما ، وكلف الناس بأن يعملوا لدينهم ودنياهم على منهج خاص أتتهم به الشريعة وبينته لهم أحسن بيان .
فالمريض الذى ينفعه دواء خاص لا يحل له أن يتركه اعتمادا على القضاء والقدر ، والقادر على السعى على الرزق يحرم عليه أن يكون عالة على الناس اعتمادا على القضاء والقدر ، والذى يترك الأرض بدون حرث وغرث وسقى اعتمادا على القضاء والقدر ، يكون آثما جاهلا بلا كلام .
وهكذا كل الأسباب المشروعة النافعة ، يجب على الناس أن يستمسكوا بها ، ويحرم عليهم أن يستمسكوا بالقضاء والقدر فى شأنها ، لأن القضاء والقدر مخبوء لا علم لأحد به ، ولم يكلفنا الله تعالى بالبحث عنه وعن معرفته ، بل بالعكس قال لنا : لا ينفعكم الاحتجاج به لا فى الدنيا

ولا فى الآخرة . فاذا كان الاستمساك بالقضاء والقدر يدفع المرء الى العمل بهمة ونشاط وهو يقول أنا لا أبالى باقتحام المخاطر فى سبيل الله لأنه لا يصيبنى إلا ما هو مكتوب ، فذلك حسن . أما إذا كان الاستمساك بالقضاء والقدر يحمل الناس على التواكل وترك العمل ، فذلك قد نهى عنه الله ورسوله نهيا شديدا . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على علىّ وزوجه فاطمة فسألهما : هل يقومان الليل ؟ فقال علىّ : أرواحنا بيد الله إن شاء قمنا وإن شاء لا ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، وخرج وهو يقول : « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ! » هدانا الله الى سواء السبيل ؟

عبد الرحمن الجزيرى

فضيلة الحياء

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء » .

وليس معنى الحياء أن ينزوى الرجل عن الناس خجلا من الاتصال بهم ، وأن يصمت فى المجلس تهيبا منهم ، كل هذا يعتبر ضعفا لا حياء ، إنما الحياء أن لا يتأخر عما يتقدم فى مثله الرجال (حياء منه) أن يقال ضن بنفسه فى حالة حاجة المجتمع إليه ، وأن لا يضعف عن الإدلاء بحجته فى المجامع (حياء منه) أن يظن به عيا أو حصرا ، وأن لا يأتى ما يخالف الكرامة والمروءة وشرف الرجولة (حياء منه) أن يتهم بالخسة والدناءة وسقوط الهمة . فالحياء هو هذا لا أن يظهر الرجل كأنه امرأة خفرة تشيح بوجهها عن كل من يقابلها ، وتحيد عن طريقها حتى لا يصادفها من اعتاد أن يسلك هذا الطريق من أهل الوجاهة .

وأحسن ما وقفنا عليه مما قاله الحكماء فى الحياء قول أرسطو : « من استحيا من الناس ولم يستحى من نفسه فلا قدر لنفسه عنده » .

لا جرم أن هذه من أبلغ الحكم ، فان النفس الشريفة تخجل من نفسها أن تتصف ببعض صفات السوء ، ولو لم يؤانس أحد منها ما يدل عليها . فهذه النفس واحدة من نفوس عالية كتب لها الشرف فى الوجود ، والسمو فى الحياة ، وإن كانت من الفقر بحيث لا يأبه بها أحد . فهى ليست فى حاجة لأن يأبه بها أحد ، ما دامت تشعر بأنها سامية ، وبأن تناسب الملأ الأعلى طلاقة نفس ، وكرم قصد ، وبعد غاية .

تاريخ الفقه الاسلامي في مصر

– ٨ –

المدرسة الثالثة :

تحدثنا فيما مضى عن أساطين المدرسة الثانية ، وأشبعنا القول ، بقدر ما تتسع له صفحات من مجلة سيارة ، في الليث بن سعد الفهمى ، أحد الأئمة المجتهدين ، وكبير الفقهاء المصريين .

واليوم نتحدث عن المدرسة الثالثة ، ونعنى بها مدرسة التابعين للأئمة المجتهدين ، والعهد بها يبدأ بعد فترة من منتصف القرن الثانى للهجرة ، وينتهى باستيلاء الفاطميين على مصر فى أوائل القرن الرابع .

ظهر كثير من أساطين هذه المدرسة فى عصر الأئمة المجتهدين أنفسهم ، وتلمذ بعضهم لهؤلاء الأئمة فعلا ، وسمع منهم ، وروى عنهم ، وكانوا يتفاوتون ، وتختلف حظوظهم من الفقه والنظر باختلاف ملكاتهم ، ودرجات استعدادهم ، وطرق دراستهم . فمنهم من كان عمله ينحصر فى جمع أقوال إمامه ، وتمحيص الرواية عنه ، وحكاية مذهبه ، فان زاد على ذلك شيئاً فلا تعدو زيادته أن تكون تخريجا ، أو رداً لأصل ، أو تبيينا لمجمل ، أو تفريعا لمسألة من المسائل الكلية ؛ ومنهم من كان ينظر فى أقوال إمامه فيرجح منها ويختار ، ويقوى بعضها ، ويضعّف بعضا ؛ ومنهم من كان يطلق لنفسه العنان ، ويمنح عقله قسطا كبيرا من حرية الرأى والنظر ، فربما رفض قول إمامه ، وعارض مذهبه ، واستقل برأى يراه .

ومهما يكن من شىء ، فقد استطاع الفقه الاسلامى أن يظفر على أيدى رجال هذه المدرسة ونظرائهم من رجال الأمصار الأخرى بنحو قرنين من الزمان استوى فى مداهما علما ناضجا له كل خصائص العلوم فى عهود رقيها ونهضتها ، من دراسة ينقطع لها نوابغ العلماء ، وتحقيق يعكف عليه ذوو العقول الممتازة ، والأفهام الجبارة ، وتأليف يتوفر له أرباب الأقلام السيالة ، فلو أن امرأ زعم أن هذا العصر هو العصر الذهبى فى تاريخ الفقه الاسلامى لما كان فى ذلك مبعدا عن الصواب . وناهيك بعصر يُزْهى على العصور بأمثال ابن القاسم ، وأشهب ، وابن عبد الحكم ، وابن وهب من فقهاء المالكية ، وأمثال الكندى ، وابن أبى الليث ، والبويطى ، والمزنى ، والربيع المرادى من فقهاء الحنفية والشافعية !

ولقد كان المسجد الجامع يومئذ ، وهو مسجد عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أشبه بنبع صاف فياض يزدحم حواليه الوراد ، بل أشبه بجامعة علمية كأرقى ما نعلم من الجامعات الحديثة ، تلتقى فيها الدراسات ، وتدور المحاورات ، وتعقد المناظرات ، وتعرض الكتب والتآليف والرسائل ، وتنقد المذاهب ، وتناقش الآراء ، وتمحص المسائل ، فى كنف من حرية الرأى ،

واستقلال الفكر ، وأدب البحث ، وعفة المقال ؛ فاذا أفضى الأمر فى شىء من ذلك الى خصومة فهى خصومة شريفة غايتها الوصول الى الحق ، قد تشتد أحيانا وتعظم حتى ليخيل إليك أنها حرب عوان وهى حرب أى حرب ، ولكن جندها العلماء ، وقادتها الأئمة الأعلام ، وسهمها الحجة والبرهان !

كل أولئك قد عاد على الفقه الاسلامى بأوفر المغانم ، وحَمَّلَ التاريخ منه كنوزا لو أنفق منها أهل الزمان مدى الزمان لأربت على الإنفاق !

كيف وردت إلى مصر المذاهب الفقهية ؟

لقد عرفت مصر فى ذلك العهد المذاهب الفقهية الثلاثة المشهورة ، أما مذهب ابن حنبل فلم تعرفه مصر إلا فيما بعد ؛ وقد ذكر السيوطى أنه لم يظهر ولم يسمع خبره بمصر إلا فى القرن السابع.

فأول من نقل مذهب الحنفية إلى مصر إسماعيل بن اليسع الكوفى ، وهو قاض ولاه المهدى قضاء مصر سنة ١٦٤ هـ وكان يرى رأى أبى حنيفة فى إبطال الأحباس « الأوقاف » ، وكان الليث بن سعد يومئذ حيا ، وهو يرى صحة الأوقاف ، وأهل مصر جميعا على هذا الرأى لا يحبون جدالا فيه أو مراء ، فثقل عليهم هذا القاضى ، الذى يريد أن يحدث لهم أحكاما لا يعرفونها ، فدبروا لعزله ، واستعانوا على ذلك بالليث بن سعد الذى كان يخالفه فى رأيه ، والذى كان له من النفوذ والسلطان ما قد ذكرنا ، فكتب الليث الى المهدى فعزله .

ولكن المذهب الحنفى لم يبطل بذلك من مصر ، فقد ترك هذا القاضى الحنفى فى نفوس كثير من أهل العلم أثرا من فقهه ورأيه ، ثم حدث ظرف سياسى بعد ذلك فى مصلحة هذا المذهب ، ذلك أن الرشيد أولع بأبى يوسف الفقيه صاحب أبى حنيفة ، وقربه إليه ، وولاه قضاءه ، وكان يستشيره فى أمر تولية القضاة بالأمصار ، فلا يشير إلا بقاض حنفى ، فكان لا يولى ببلاد العراق وخراسان ومصر والشام إلا من كان حنفيا ، وانتشر بذلك مذهب أبى حنيفة فى مصر كما انتشر فى أمصارٍ غيرها .

وإذا كان هذا الحظ قد صادف المذهب الحنفى فروج له فى مصر ، وحض عليه العامة والخاصة ، فقد نال المذهب المالكى حظوة من نوع آخر لدى المصريين ، ذلك أن طائفة من أبناء مصر النبغاء قد درسوا هذا المذهب وأجادوه ، وتعرف كثير منهم الى صاحبه مالك بن أنس رضى الله عنه ، فرحلوا إليه ، وأخذوا عنه ، وبهرهم علمه ، وملكتهم مهابته ، فكانوا أداة لنشر مذهبه بين المصريين لا تقل عن الأداة الرسمية التى كان لها بعض الشأن فى الترويج لمذهب الحنفية . فمن هؤلاء عثمان بن الحكم الجذامى أول من أدخل علم مالك الى مصر ، والذى قيل إنه لم تنبت مصر أفضل منه ، وهو فقيه محدث من أصحاب مالك ، روى عنه وعن موسى بن عقبة ، وروى عنه الليث ، وابن وهب ، ورشيد بن سعد ، وتوفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ .

ومنهم بطل المالكية وعمدتهم عبد الرحمن بن القاسم ، الفقيه المصرى البارع ، الذى صاحب مالكا عشرين سنة ، وقال فيه مالك : « لم أر مثله ، هو جراب مملوء مسكا » ! وحسبك أن المالكية لا يصفون قولا من أقوال أئمتهم بأنه المعتمد فى المذهب إلا قول ابن القاسم !

والناس يختلفون فى ابن القاسم ، فمنهم من يعده مقلدا لمالك ، متبعا فى الفقه أصول مذهبه ؛ ومنهم من يرفعه الى درجة الاجتهاد المطلق ؛ وقد غالى بعضهم فى ذلك حتى قال : إن المالكية فى الحقيقة قاسميون ! والحق أن ابن القاسم مجتهد ولكن فى حدود مذهب الإمام مالك وعلى طريقته ، وإن رجلا يصاحب إمامه عشرين عاما كاملة لا بد أن يكون قد تأثر به الى أبعد حدود التأثر مع نماء قوة النظر فيه ، ولذلك يعد بعض المالكية الخلاف بينهما يسيرا متقاربا ، بل يأبون أن يعدوا بينهما خلافا حقيقيا إلا فى أربع مسائل ذكرها ابن ناجى فى كتاب الزكاة من شرح المدونة . وتوفى ابن القاسم سنة ١٩١ هـ .

وقد نبغ فى المصريين إمام آخر يعد ثانى اثنين أولهما ابن القاسم : وهو أشهب بن عبدالعزيز ابن داود القيسى ، تفقه بمالك والمدنيين والمصريين ، وانتهت اليه الرياسة بمصر بعد ابن القاسم ، وهما بالنسبة لمالك كمحمد بن الحسن ، وأبى يوسف بالنسبة لأبى حنيفة . توفى أشهب سنة ٢٠٤ هـ

ومن كبار المالكية فى مصر لذلك العهد : عبد الله بن وهب ، ولعل القراء يذكرون أننا عددناه من قبل فى رجال المدرسة الثانية وترجمنا له بينهم ، لأنه كان من أوائل المشتغلين بجمع الحديث وتدوينه ، فهو ذو شخصيتين إحداهما شخصية المحدث ، والأخرى شخصية الفقيه ، ويظهر أن أولاهما قد طغت على الأخرى حتى إنك لتراه فى فقهه راوية أكثر منه فقيها ، وإذا كان مالك يكتب اليه : « الى فقيه مصر » أو « الى أبى محمد المفتى » فانه كان يلمح الى هذا الذى أثبتناه فيقول فيه : إنه عالم ، وإنه إمام ، وإنه ديوان العلم ، على حين كان يقول فى ابن القاسم : إنه فقيه !

هؤلاء بعض الذين نشروا فقه مالك بين المصريين ؛ وقد اشتد الخلاف بين الحنفية والمالكية ، ووجد كل مذهب أنصارا له من المصريين يؤيدونه ويبثون فقهه بين العامة ، ويعقدون له الحلق فى المسجد الجامع .

وفى تلك الأثناء لمع فى بلاد الحجاز وبلاد العراق نجم ثاقب ، شرق ذكره فى الآفاق وغرب ، ذلك هو الإمام النابه الذكى الفقيه الأديب : محمد بن إدريس الشافعى .

كان رضى الله عنه تلميذا لمالك ، وكان يعرف مقامه بين أهل المدينة ، ومقدار انتشار مذهبه فى أهل الحجاز ، فلم يطمع فى نشر مذهبه بينهم .

وكان إذا رحل الى العراق وجد كل شىء فيها الى جانب المذهب الحنفى ، فأبو حنيفة

عراق بين عراقيين ، والعراقيون يومئذ مصدر القوة والجاه والسلطان ، فأنى له أن يزاحم بمنكبيه فى هذا المزدحم ؟

ولكنه كان إذا نظر الى مصر وجد كل شىء فيها يدعوه إليها ، فمصر بلد تكرم الوافدين وتحتفل بالواردين ، وأخبار الخلاف بين فقهائها تترامى إليه ، وتلاميذه من المصريين يزينون له الرحيل إليها ، فلتكن مصر إذاً مثابته ومقصد آماله ، وليرحل إليها كما أشار عليه تلاميذه لعل الله أن يجمع به بين المتخالفين ، ويصلح بين المتخاصمين ، ويفتح له بذلك فتحا مبينا .

قال الزعفرانى : سأل الشافعى الربيع عن أهل مصر قبل أن يرحل إليهم ، فقال له الربيع : هما فرقتان : فرقة مالت الى قول مالك وناضلت عنه ، وفرقة مالت الى قول أبى حنيفة وناضلت عنه ! فقال الشافعى : أرجو أن أقدم الى مصر إن شاء الله فآتيهم بشىء أشغلهم به عن القولين جميعا . فلما أراد الخروج الى مصر أنشد لنفسه :

أخىَّ أرى نفسى تتوق الى مصر ومن دونها أرض المهامهِ والقفرِ
فوالله ما أدرى ألَلفوز والغنى أساق إليها ؟ أم أساق الى قبرى ؟

قال الزعفرانى : فوالله لقد سيق إليهما جميعا ! !

« يتبع »

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

توفية الدين

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أخذ أموال الناس بريد إتلافها أتلفه الله » .

وقال حكيم : الدَّين يجمع كل بؤس : هم بالليل وذل بالنهار ، وهو ساجور الله فى أرضه ، فإذا أراد الله أن يذل عبدا جعله طوقا فى عنقه .

وعن عمرو بن دينار قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أريت إن قتلت شهيدا فأين أنا ؟ قال رسول الله : فى الجنة . ثم قال : قال لى جبريل : إن لم يكن عليه دين .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة رجل من الأنصار ، فقال : أعليه دين ؟ قالوا نعم ، فرجع ، فقال على رضى الله عنه : أنا ضامن يا رسول الله . فقال له النبى : ياعلى فك الله رقبتك كما فككت عن أخيك المسلم ، ما من رجل يفك عن رجل دينه إلا فك الله رهانه يوم القيامة !

نقول : إن هذا التشديد فى الأمور المالية من مظنة التسامح فيها ، يدل العالم الاجتماعى أن هذا الدين أسس على علم عال ، وحكمة سامية . فإن الترابط الاجتماعى لا يقوم إلا على التعاون ، فإن لم يقم هذا التعاون على الوفاء بالحقوق ، تراخت أواخيُّه ، وضعف الاجتماع .

تاريخ علم التفسير

نماذج من التفسير فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم

أشرنا فى المقالين السابقين إلى أن تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ليس على النمط الذى نعلمه من تفسير العلماء على اختلاف طبقاتهم ؛ فهو يبين الناسخ والمنسوخ ، ويخصص العام ، ويقيد المطلق . . . الخ . ومن النماذج التى نوردها يتبين ذلك جليا .

انظر إلى المثال رقم (١) الآتى تجد الآية الكريمة أنزلت أول ما أنزلت ، عامة ، فلما شكا ابن أم مكتوم ضرارته نزل الاستثناء فخصص العام ، على إحدى الروايات فى ذلك ؛ أو نزلت آية فيها النص على التخصيص مكان الآية العامة ، على إحدى الروايات . ومعلوم أن تخصيص العام فى آية قرآنية بآية ، أو نزول آية مكان آية ، لا يكون إلا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ هذا من شأن الوحى وهو مختص به صلى الله عليه وسلم .

ويرى بعض الأصوليين أن السنة المتواترة تنسخ القرآن ، ويرى أكثرهم أن السنة ، ولو كانت غير متواترة ، تخصصه ، إلى آخر ما دونوه فى كتبهم ، واستدلوا عليه .

وإنما الذى نريد أن ننبه عليه هنا أن تفسير النبى صلى الله عليه وسلم وبيانه ، ليس كتفسير علماء الطبقات ، لأجل أن يتضح لنا عند المقارنة مقدار الفروق بين التفاسير ، والعوامل التى أدت إلى ذلك .

وإذا نظرت الى المثال رقم (٢) رأيت فيه كذلك تخصيص العام ، أو بيان المجمل . وقد شدد النبى صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ القصاص حيث تمسك به أصحاب الحق ، انظر الى قوله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس : كتاب الله القصاص » ثم أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبول الأرش حين رضى به أصحاب الحق .

وهكذا إذا أمعنت النظر فيما نورده من النماذج حصلت عندك صورة صحيحة لتشريع الأحكام وبيانها وتقريرها ، خصوصا إذا كنت على علم مما قرره علماء الأصول .

وإليك النماذج :

١ — قول الله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » :

لما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم : ادعوا فلانا (١) — لأحد كتاب الوحى —

---

(١) هو سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه كما فى بعض الروايات .

لجاءه ومعه الدواة والكتف ، فقال : اكتب « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » . فقال ابن أم مكتوم : يارسول الله أنا ضرير ، فنزلت مكانها : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » .

ويروى ابن جريج قال : أخبرنى عبد الكريم أن مقسما مولى عبد الله بن الحارث أخبره أن ابن عباس رضى الله عنهما أخبره : لا يستوى القاعدون من المؤمنين : عن بدر ، والخارجون الى بدر .

فأنت ترى أن الآية أول ما أنزلت كان نصها : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » ، وقد أملاها النبى صلى الله عليه وسلم على سيدنا زيد بن ثابت بهذا النص ، فلما شكا ابن أم مكتوم ضرارته استثنى الله من أصيب بالعمى من حكم العام ، رحمة منه بالعباد ؛ ونزلت آية أخرى مكان هذه الآية تنص على الاستثناء على ما يفهم من قول الراوى : « فنزلت مكانها » . وبعض الروايات الأخرى تنص على أن الذى نزل بعد الشكوى إنما هو الاستثناء فقط ، كرواية البخارى بسنده عن ابن شهاب ، قال ابن شهاب : حدثنى سهل بن سعد الساعدى أنه رأى مروان بن الحكم فى المسجد فأقبلت حتى جلست الى جنبه ، فأخبره أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علىّ فقال : يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت بأن ترض فخذى ، ثم سرى عنه : « غير أولى الضرر » . فهذه الرواية صريحة فى أن الذى نزل بعد الشكوى هو الاستثناء فقط .

٢ — قول الله تعالى : « والجروح قصاص » :

لما كسرت الربيّع ، وهى عمة أنس بن مالك رضى الله عنه ، ثَنِيةَ جارية من الأنصار ، طلب القوم القصاص ، فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأمر بالقصاص ؛ فقال أنس بن النضر ، وهو عم أنس بن مالك : لا والله لا تكسر سنها يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أنس : كتاب الله القصاص ! فرضى القوم ، وقبلوا الأرش . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » .

٣ — قول الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » الآية :

عن أبى النعمان قال : كنت ساقى القوم فى منزل أبى طلحة فنزل تحريم الخمر ، فأمر مناديا فنادى ، فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت . قال : فخرجت فقلت : هذا مناد ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت . فقال لى : اذهب فهرقها . قال : فجرت فى سكك المدينة . قال : وكان

خمرهم يومئـذ الفضيخ . فقـال بعض القوم : قتل قـوم وهى فى بطونهم ؟ قال : فأنزل الله : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح » الآية .

٤ — قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم عُيَينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحُـرّ بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته كهولا كانوا أو شبابا . فقال عيينة لا بن أخيه : يابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه ، قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال هِىْ يا بن الخطاب ! فو الله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعـدل . فغضب عمر حتى هم أن يوقع به . فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وإن هذا من الجاهلين . والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله . وعن ابن الزبير فى معنى الآية قال : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسـلم أن يأخذ العفو من أخلاق الناس .

٥ — قول الله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » :

روى البخارى بسنده عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا جاءه فقال : ياأبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكره الله فى كتابه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » الآية ، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يابن أخى أعتبر بهذه الآية ولا أقاتل أحب الى من أن أعير بهذه الآية التى يقول الله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا » الى آخر الآية . قال : فان الله يقول : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » . قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان الاسلام قليلا ، فكان الرجل يفتن فى دينه ، إما يقتلونه وإما يوثقونه ، حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة . فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد ، قال : فما قولك فى على وعثمان ؟ قال ابن عمر : ما قولى فى على وعثمان ؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه فكرهتم أن يعفو عنه ، وأما على فابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخَتَنه ، وأشار بيده ، وهذه ابنته حيث ترون .

وروى البخارى بسنده عن سعيد بن جبير قال : خـرج علينا أو إلينا ابن عمر ، فقال رجل : كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ قال : وهل تدرى ما الفتنة ؟ كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك ؟

حسن حسين

الكلام والمتكلمون

— ١٠ —

فخر الدين الرازي :

نسبه وحياته : هو الامام أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي البكري المعروف بابن الخطيب الملقب بفخر الدين الرازي ، وهو ينتمي الى أسرة عربية عريقة .

ولد هذا الامام فى مدينة الري بفارس سنة ٥٤٣ هـ — ١١٤٩ م . نشأ فى بيت علم وأدب ، فوالده الامام ضياء الدين عمر — خطيب الري — كان على جانب عظيم من العلم ، برع فى علم الأصول والمذهب ، وأخذ عنه الكثيرون . ويذكر ابن أبي أصيبعة أن له تصانيف عدة فى الأصول والوعظ وغير ذلك . درس الرازي من العلوم والفنون ما عرف فى عصره وكتب فيها .

اشتغل فى مبتدأ أمره بالفقه والأصول والتفسير على والده ، ثم تنقل بين الحيرة وخوارزم وغيرها من المدن والأمصار ، ودرس العلوم الاسلامية دراسة عميقة متبحرة ، حتى لقبه معاصروه بشيخ الاسلام لعلمه الواسع وتقواه . وكان شافعي المذهب . ثم قصد الكمال السمعاني واختلف اليه مدة ، ثم عاد الى الري ، فألم بالطب ، ونبغ فى الأدب ، ونظم الشعر بالعربية والفارسية ووعظ بهما ، وكان من أهل الدين والتصوف . كان يعظ فى بلدة الري وغيرها من المدن فيلقي للناس أفانين الحكمة وأزاهيرها ، فيبكي كثيرا ، ويبكي الناس كثيرا .

غير أنه لم يكتف بهذه العلوم الذائعة فى عصره ، واشتاق الى الاشتغال بالعلوم العقلية ودراسة مذاهب المتكلمين والفلاسفة ، فتردد على مجد الدين الجيلي أحد أصحاب محمد بن يحيي . ولما رحل المجد الجيلي الى مراغة ليدرس بها ، صحبه فخر الدين وقرأ عليه مدة طويلة علم الكلام والحكمة . ويقال : إنه حفظ « الشامل » لإمام الحرمين ، ثم ارتحل الى خراسان ، وفيها وقف على مؤلفات الفارابي وابن سينا وعلم منها علما كثيرا (١) . وظل عاكفا على دراسة الحكمة حتى فاق فيها أهل عصره .

ولما اكتمل علمه ، ترك الري وعبر الى خوارزم ؛ وهناك جادل المعتزلة فأخرج من البلدة ، فقصد ما وراء النهر ، فحدث له هناك ما حدث له فى خوارزم ، فعاد الى الري . . . فى هراة لقب الرازي بشيخ الاسلام ، وحضر مجلسه أرباب المذاهب والمقالات يسألونه وهو يجيب ، وكان بينه وبين الكرامية أحاديث جدلية عنيفة ، يتهمهم بالإلحاد ويتهمونه ، واستعرت العداوة

---

(١) انظر صفحة ١٩٠ من القفطي .

بينه وبينهم حتى قيل : إنهم سموه ، وبلغ من أمر الحشوية أن كتبوا له رقعا فيها أنواع السيئات يضعونها على منبره .

وفى أواخر أيامه ، وقد بلغ أوج كماله العلمى ، حدث له ما حدث لأبى حامد الغزالى من قبل ، فقلت ثقته بالعقل الانسانى وأحس بعجزه ، وأدرك تماما أنه لا يستطيع الاحاطة بالوجود فى ذاته ، فأدركته حالة صوفية كانت تنتابه منها فى بعض مجالس وعظه نوبات فيصرخ مستغيثا . وعظ يوما بحضرة السلطان شهاب الدين الغورى وحصلت له حال ، فاستغاث : « يا سلطان العالم ، لا سلطانك يبقى ، ولا تلبيس الرازى يبقى » . قال ابن الصلاح : أخبرنى القطب الطوغانى مرتين أنه سمع فخر الدين الرازى يقول : « يا ليتنى لم أشتغل بعلم الكلام ، وبكى » . وقال فى كتابه الذى صنفه فى أقسام الذات : « ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن . أقرأ فى التنزيه : « والله الغنى وأنتم الفقراء » ، وقوله تعالى : « ليس كمثله شىء » ، و « قل هو الله أحد » ؛ وأقرأ فى الاثبات : « الرحمن على العرش استوى » ، « يخافون ربهم من فوقهم » ، و « إليه يصعد الكلم الطيب » ؛ وأقرأ فى أن الكل من الله قوله : « قل كل من عند الله » ، ثم أقول وأقول من صميم القلب ، من داخل الروح : إنى مقر بأن كل ما هو الأكمل والأفضل الأعظم الأجل فهو لك ، وكل ما هو عيب ونقص فأنت منزه عنه » .

مرض الرازى وأيقن أنه لا محالة مائت ، ففى الحادى والعشرين من المحرم سنة ٦٠٦ هـ ست وستمائة — ١٢٠٦ م أملى على تلميذه ابراهيم بن أبى بكر الأصفهانى وصية تعتبر غاية مثلى للأتقياء ، جاء فيها :

« اعلموا أنى كنت رجلا محبا للعلم ، فكنت أكتب فى كل شىء شيئا ، لا أقف على كمية ولا كيفية ، سواء كان حقا أو باطلا ، أو غثا أو سمينا ، إلا أن الذى نظرته فى الكتب المعتبرة لى أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير منزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة . ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع من التعمق فى إيراد المعارضات والمتناقضات ، وما ذلك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية . ولهذا أقول : كل ما ثبت بالدلائل الظاهرية من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء فى القدم والأزلية ، والتدبير والفعالية ، فذلك هو الذى أقول به ، وألقى الله تعالى به . وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ما ورد فى القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو . والذى لم يكن كذلك ، أقول : يا إله العالمين إنى أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين . فكل ما أمر به قلمى أو خطر ببالى

فأستشهد وأقول : إن علمت منى أنى ما سميت إلا فى تقديس اعتقدت أنه الحق وتصورت أنه الصدق ، فلتكن رحمتك مع قصدى ، لا مع حاصلى ، فذاك جهد المقل ، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع فى زلة . فأغثنى وارحمنى ، واستر زلتى ، وامح حوبتى ، يا من لا يزيد ملكه عرفانُ العارفين ، ولا ينقص ملكه بخطأ المجرمين . وأقول دينى متابعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتابى القرآن العظيم ، وتعويلى فى طلب الدين عليهما » .

مؤلفاته :

للرازى مؤلفات لو حاولنا أن نحللها هنا لخرجنا عن خطة الإيجاز التى رسمناها لأنفسنا فى البحوث المتعلقة بالمتكلمين من هذه الفصول . ولذا نحن نكتفى فيها بهذه الإشارة الوجيزة ، فنقرر أنها كانت بمثابة موسوعة ضخمة لعلوم عصره ، إذ اشتملت على الفلسفة والتوحيد وتفسير القرآن والفقه والأدب والشعر والهندسة والطب . وقد نالت كتبه من النجاح والتأثير فى أهل عصره حدا جعلها تنسيهم أكثر مؤلفات من سبقوه .

حافظ الدين النسفى — حياته ومنتجاته :

ولد حافظ الدين أبو البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفى فى نسف ، ولا يعرف المؤرخون متى ولد بالضبط ، وإنما يؤكدون أنه لما شب تلقى العلم عن شمس الأئمة الكردلى وعن حميد الدين الضرير ، وأنه بعد أن أتم دراسته عين أستاذا فى المدرسة القطبية السلطانية بكرمان ، وأنه ارتحل الى بغداد ثم لم يلبث أن غادرها . وفى أثناء سفره توفى ودفن فى خرزستان فى سنة ٧١٠ هـ — ١٣١٠ م .

أما مؤلفاته فأهم ما بقى منها ما يلى :

(١) كتاب « المنار فى أصول الفقه » . وقد شرحه المؤلف نفسه فى كتاب سماه : « كشف الأسرار » .

(٢) كتاب « الوافى » وقد شرحه أيضا بكتاب سماه : « الكافى » .

(٣) « كنز الدقائق » وهو بعض ما فى كتاب « الوافى » . وقد تلقى عليه تلميذه ابن الساعاتى بعض فصوله فى كرمان فى سنة ٦٨٣ هـ . وهذا الكتاب لا يزال الى الآن يدرس فى دمشق وفى الجامعة الأزهرية ، وله شروح كثيرة أهمها ما يلى :

(ا) « تبيين الحقائق » للزيلعى المتوفى فى سنة ٧٤٣ هـ - ١٣٤٢ . أو ١٣٤٣ م . (ب) « رمز الحقائق » للعينى المتوفى فى سنة ٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م . (ج) . « تبيين الحقائق » لملا مسكين الذى كتبه فى سنة ٨١١ هـ - ١٤٠٨ أو ١٤٠٩ م . (د) « توفيق الرحمن » للطائى المتوفى فى سنة ١٠٩٢ هـ - ١٧٧٨ م .

(٤) « العمدة فى أصول الدين » وقد عرف أيضا بعنوان : « المنار فى أصول الدين » . وقد نشره فى أوروبا « كوريتون » فى سنة ١٨٤٣ م . وقد سلك فيه مؤلفه نهج نجم الدين النسفى فى العقائد النسفية ، ثم شرحه فى كتاب عنونه : « الاعتماد فى الاعتقاد » .

وبهـذه المناسبة ينبغى أن ننبه الى أن النسفى مؤلف العقائد ليس هو النسفى المفسر كما تعتقد الـكثرة المطلقة من المتعلمين .

هذه هى أهم مؤلفاته الموضوعة . أما شروحه فأهمها ما يأتى :

(٥) « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » فى تفسير القرآن .

(٦) شرح كتاب « النافع » لناصر الدين السمر قندى .

(٧) « المستصفى » فى شرح منظومة نجم الدين النسفى .

هذا ، ويؤكد الأستاذ « هيفينينج » فى دائرة المعارف الاسلامية أن أبا البركات النسفى لم يكتب شرحا للهداية كما زعم الحاج خليفة ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

العمل للدنيا عبادة

قال المأمون : أمور الدنيا أربعة : إمارة ، وتجارة ، وصناعة ، وزراعة ؛ فمن لم يكن أحد أهلها كان كَلاًّ على الناس .

وقال حكيم : قوام الدنيا والدين العلم والـكسب ؛ فمن رفضهما فقال أبتغى الزهد لا العلم ، والتوكل لا الـكسب ، وقع فى الجهل والطمع .

وقال غيره وهـو مستمد من أحاديث نبوية كثيرة : بذل الجهد فى طلب الحلال ، وقلة الحوايج الى الناس ، أفضل العبادة .

وقد قال أحد الشعراء :

ليس التصوف أن يلاقيك الفتى   وعليه من لبس المجوس مرقع
بطرائق سـود وبيض لفقت   وكأنه فيه غـراب أبقع

وقال غيره فى المراءاة بالتصوف :

عجبت من شيخ ومن زهـده   يذكر النـار وأهـوالها
يـكره أن يشرب فى فضـة   ويشرب الفضة إن نالها

وقال الحسن البصرى : إن قوما جعلوا تواضعهم فى ثيابهم ، وكـبرهم فى صدورهم ، حتى لَـصاحب المدرعة بمدرعته ، أشد فرحا من صاحب المِطْرَف بمطرفه . (المطرف رداء من حرير)